العفو والصفح والغفران في القرآن الكريم

أ.د / يحيى محمد يحيى
الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد بالكلية

هذا البحث هو الخلق والمتمم لموضوع متكامل مترابط ، يجدر بالناس أن يكونوا على وعى به • وهذا الموضوع هو العلاقات والوشائج التى تنبعث من ترابط الناس ببعضهم ، ومن ترابطهم بمشاعرهم وخوالج نفوسهم ثم انطوائهم — طوعا أو كرها — تحت رقابة الله تعالى وشرعه الحكيم •

فقد افتتحت هذا الموضوع المهم ببحث تحت عنوان « الفتنة فى القرآن الكريم » ثم أتبعتها بالثانى ، وكان تحت عنوان « العداوة والمعتدون فى القران الكريم » • ثم كان الخاتم والمتمم لتلك القضية ، وهو بحثنا هذا •

ووجه الترابط بين ثلاثتها هو الخيط الدقيق الذى يربط بين الحدث النفسى والفعل الخارجى ثم المراجعة والمعاودة لينتهى الأمر الى خير والى نعم الله وعفوه وكرمه ، بدلا من التمادى فى اللهو والخسران المبين •

والعفو والصفح والغفران ، كلمات ثلاث تحلو وتجمل اثر وقوع ما يغضب ويوجب المؤاخذة وكأن درسها — هنا عقيب البحثين السابقين — دعوة حثيثة الى الارتماء فى رحاب الله الكريم وفى جناب من أوذى من الناس لنظفر بعفوهم وصفحهم وغفرانهم بعد الوقوع فى الفتن واثر الانغماس فى العداوات وجدال المعتدين ، حتى نصفو الحياة الدنيا ويؤمن جناب الحياة الأخرى •

ولكن ، من الأجدى والأجدر أن نتجول فى رحاب اللغة لنتعرف على ضوابط ودلالات تلك الكلمات فى لسان العرب وكلامهم ، وكيف أن القرآن الكريم استعمل تلك المواد فى مقامها اللائق بها لتحيل الحياة أمرا جديدا وعمرا مباركا فيه ، بالتواد والتصالح والالتزام بما ينفع ، مع الله ، ومع الناس ، ومع النفس .

والناظر فى معاجم اللغة ، يجد أن لفظة العفو تتلاقى مع معانى الفضل والزيادة والترك . فهى موحية — اذن — بتفضل من العافى ، وترك للمؤاخذة منه ثم زيادة منه على المتعارف من حق وعدل وتوسط حتى يلف المعفو عنه بلفافة من المودة والكرم تجعله لا يعود الى ظلم أو زلل ، ما استطاع .

هذا ، من ناحية . ومن ناحية أخرى ، نجدها تنسجم فى معناها مع معانى الصفح والغفران ، فالصفح يعنى الاعراض والترك . والغفران يعنى التغطية والستر . وبترك المعانى ، تتقابل وتتلاقى وتتآلف نجد أن العفو محو وطمس ، أى ، فيه تغطية وستر ، أى انتهى الى اعراض وترك وكأن ما كان لم يكن . فلتبدأ النفوس والعقول والعلاقات بداية ترد على عفو العافى وصفح الصافح وغفر الغافر وما ذاك ، الا بوابل من الأدب والالتزام بما يحيل الأمر الى خير لا ينقطع وود لا يتوقف ، ونعمة واضحة وحياة راضية .

ومن جميل ما ذكره ابن منظور فى لسان العرب وعم فى غيره من المعاجم هذه اللقطات :

(أ) عن تلاقى معنى العفو مع الفضل والزيادة والترك نجد قوله :

العفو : التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه . وأصله : المحو

والطمس • وكل من استحق عقوبة ثم تركتها فقد عفوت عنه • والعفو: المعروف والعفو : الفضل • وعفو المال ما يفضل عن النفقة ، والعفو : الفضل الذى يجىء بغير كلفة ، وعفا النبت والشعر : كثر وطال • وعفا المنزل يعفو وعفت الدار ونحوها عفاء : درست(١) •

ويمكن ملاحظة التلاقى مع معانى : الفضل والزيادة والترك مما ذكره صاحب اللسان فى معانى تلك المواد ، ومنه قوله :

« الفضل والفضيلة : معروف ضد النقص والنقيصة • والتفضل: التطول على غيرك • والفضيلة والفضالة : ما فضل من الشىء »(٢) •

وقوله : « والزيادة فى اللغة : النمو وهى خلاف النقصان »(٣) •

وقوله : « وتركت الشىء تركا : خليته ، والترك : الابقاء »(٤) •

(ب) وعن ائتلاف كلمة العفر مع أختيها : الصفح والغفران ، نجد ذلك ملحوظا فيما ذكره ابن منظور وغيره •

فمادة الصفح والاعراض والجنب ، تتلاقى فى مضمونها اذ « الصفح فى اللغة الجنب ، والصفحان : الخدان ، وصفحتا العنق : جنباه ، وصفحتا الورق وجهاه اللذان يكتبان • وضربت عنه صفحا اذا أعرضت عنه وتركته »(٥) •

« وأعرض عن الشىء : اذا ولاه ظهره ، والاعراض عن الشىء : الصد عنه • والصد فى اللغة معناه : الاعراض والصدوف » (٦) •

---

(١) راجع مادة « العضو » فى اللسان والقاموس ومختار الصحاح •
(٢) راجع مادة « الفضل » فى اللسان والقاموس ومختار الصحاح •
(٣) راجع مادة « الزياد » فى اللسان والقاموس ومختار الصحاح •
(٤) راجع مادة « الترك » فى اللسان والقاموس مختار الصحاح •
(٥ ، ٦ ، ٧) راجع بالترتيب مواد : صفح وأعرض وصد وجنب فى اللسان والقاموس والمختار •

« وجنب الشيء وتجنبه وجانبه وتجانبه واجتنبه أي بعد عنه » (٧) .

أما عن مادة الغفران فتقول المعاجم : « الغفران في اللغة من التغريم بمعنى التغطية والستر » (٨) والفعل : غطا وغطى في اللغة بمعنى وارى وستر (٩) والفعل ، ستر في اللغة وتستر أي أخفى وتغطى » (١٠) .

وبعد هذا العرض من معاجم اللغة ، نقول : كيف دارت هذه الكلمات الثلاث في الكتاب العزيز وفي القرآن الكريم ؟

والجواب : أنها دارت جامعة بين معناها اللغوي وبين مقامها الرائق وسياقها الذي يطلبها وبين غايتها وهدفها المنشود من ارجاع الى الخير والود والفلاح والصلاح .

ومن عجب أن تدور هذه الكلمات موصوفا بها ربنا — جل جلاله — وموصوفا بها ، رسولنا الكريم ، وموصوفا بها المطيعون من عباد الله .

وبذلك تنسحب الرحمات من الله تعالى لتشمل كل عباده وأنبيائه ومن المشمولين تنبعث منهم رحمات على المذنبين والمقصرين وبذا ، يشيع العفو والصفح والغفران بين المخلوقين بعدما أذن الله تعالى بذلك وأخبر به عن نفسه وأذن لعباده أن يتخلقوا بأخلاقه تعالى .

فليفسح — حينئذ — المظلومون صدورهم وليفرغوا أضغانهم وليبسطوا — للظالمين — يد العفو والصفح والغفران ليحيلوهم الى أهل حب وود وعفو ، بعدما ذاقوا حلاوة ذلك ، وبذا يتسع مدى الخير

(٨ ، ٩ ، ١٠) راجع بالترتيب مواد : غفر وغطى وستر في اللسان والقاموس ومختار الصحاح .

وتنبسط رحابته أكثر وأكثر ويشملنا ربنا بعفو أعظم وصفح أكبر وغفران أشمل .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الآيات التى ضمت تلك الكلمات ، بلغت ثمانيا وثلاثين آية ، ثمانى عشرة خاصة بالله تعالى ، وأربع عشرة خاصة بالناس ، وست خاصة برسول الله ﷺ .

ومما يلاحظ على الآيات الخاصة بالله تعالى ما يلى :

١ ــ أربع منها تحكى أن العفو من الله يعنى ترك العقوبة والتعالى عن العدل الى ما هو أرحم وأرحب سواء وقع العفو عن الكبيرة أو الصغيرة .

٢ ــ ثمان منها يصور ألوانا من العفو تفتح باب الأمل وتحث على التوبة .

٣ ــ خمس منها تحكى أن العفو من الله تعالى يعنى تلازمه مع اليسر والرحمة والمغفرة .

٤ ــ آية واحدة تحكى الصفح منه تعالى بمعناه اللغوى المجرد .

ومما يلاحظ على الآيات الخاصة بالناس ما يلى :

١ ــ سبع منها ترغب فى العفو باسلوب خبرى وتحث الناس عليه وتحذرهم من ايقاعه فى صورة بلاء .

٢ ــ اثنتان منها ترغب على العفو والصفح وبأسلوب انشائى مفهم بالمغريات .

٣ ــ أربع منها تجمع بين الخبر والانشاء فى الترغيب على الغفران والتحلى بتلك الصفة .

٤ ــ آية واحدة خبرية مشروطة للحث على الجمع بين العفو والصفح والغفران.

ومما يلاحظ على الآيات الخاصة بالرسول الأكرم ما يلى :

١ ــ خمس منها تحثه بفعل الأمر على استدامة التحلى بصفتى العفو والصفح .

٢ ــ آية واحدة تخبر عنه بصفة العفو عن أعدائه فما بالنا بأمته.

كما يحسن أن نشير الى أن تلك الدراسة تعنى بالغفران الصادر من العبد لأخيه وليست بصدد دراسة واستقصاء الغفران الصادر من الله تعالى .

كما يحسن أن نشير ــ كذلك ــ الى الصيغ فى جهات البحث الثلاث : فهى عن الله حاكية ومخبرة . وهى عن رسول الله حاثة وداعية الى الاستدامة وهى عن الناس مرغبة ومصورة ومغرية على صنيعها لتوال أكبر وجزاء أعظم . وبذا تتبلور مسألة موجزة ومؤكدة فحواها : أن العفو والصفح والغفران ــ بحق ــ لا يكون الا من الله وباذنه تعالى . وكل ما يتخلق به غيره ــ من خلقه ــ انما هو جزء من رحمته واثر اذن وارادة منه تعالى.والآن الى الدرس البلاغى فى جهات البحث الكريم بادئين بما يخص الله ثم بما يخص رسوله ثم نختم البحث بما يخص الناس فيما بينهم فالى الدرس البلاغى .

الجهة الأولى من البحث : وهى الآيات الخاصة بالله تعالى :

وسبق أن ذكرنا أنها ثمانى عشرة آية تنقسم ــ من تأملاتنا فيها ــ الى أربعة أقسام هى :

١ ــ قسم يحكى عفو الله الشامل لكل المخلوقين وآياته أربع .

٢ ــ قسم يحكى صورا مغرية من العفو الحاث على التوبة وآياته ثمانى •

٣ ــ قسم يحكى التلازم الطبيعى بين التيسير والعفو والرحمة والغفران وآياته أربع •

٤ ــ قسم يحكى نفى الصفح ــ اللغوى ــ من الله تعالى ان كان لحكمة • وآيات القسم الأول الأربع هى :

قول الله تعالى من سورة التوبة ، الآية ٤٣ « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » •

والآيات الثلاث هى : ٢٥ ، ٣٠ ، ٣٤ من الشورى وهى قوله تعالى : « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » • وقوله : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » • وقوله : « أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير » •

وواضح من كلام الآيات الأربع ، ذلك الشمول الذى ينطوى تحته النبى المرسل « كما فى آية التوبة » • وكل العباد « كما فى آية ٢٥ من الشورى » بكبائرهم وصغائرهم التى تمحى عند توجيه العفو اليها • وكل العباد الملازمين للجنايات « كما فى آية ٣٠ من الشورى »

وكل المخلوقات فى البر أو البحر عاقلا كان أم جمادا « كما فى آية ٣٤ من الشورى » •

فالآية ٤٣ من التوبة ، تحكى بأسلوب خبرى صريح اسناد العفو الى الله تعالى وايقاعه على النبى الكريم ثم ترادفه بأسلوب انشائى يستفهم ــ مجازا ــ عن سبب اذنه ــ ﷺ ــ للقوم • وكان الأحوط أن يتأنى ــ ﷺ ــ فلا يأذن لهم فى القعود • والزمخشرى

يرى فى قوله تعالى « عفا الله عنك » كناية عن الجناية . ويعلل بأن العفو رادف لها . ويرى فى الاستفهام المجازى « لم أذنت لهم » بيانا لما كنى عنه بالعفو ومعناه : مالك أذنت لهم فى القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم وهلا استأنيت بالاذن »(١١) .

والعلامة القرطبى لا يذكر جناية ولا خطأ ولا ذما كما صنع الزمخشرى ، وانما هو عتاب وتلطف . وأن سر التقديم للعفو عن ذكر المعفو عنه هو محط التلطف اذ لو عاتبه قبل ذكر العفو لطار قلبه فرقا. ويذكر فى الاذن قولين : الأول : لم أذنت لهم فى الخروج معك وفى خروجهم بلا عدة ونية صادقة فساد . والثانى : لم أذنت لهم فى القعود لما اعتلوا بأعذار .

ويضيف : « وكان — ﷺ — أذن من غير وحى نزل فيه ، وقال بعض العلماء انما بدر منه ترك الأولى ، فقدم الله له العفو على الخطاب الذى هو فى صورة العتاب »(١٢) .

وذكر العلامة أبو حيان فى تفسيره ما قاله بعض السادة العلماء من أن النبى — ﷺ — ما أذنب وأن العفو فى الآية انما هو لاعلامه من الله تعالى أنه لا يلزمه ترك الاذن لهم وأن للنبى — ﷺ — أن يفعل وأن لا يفعل حتى ينزل عليه الوحى كما قال : لو إستقبلت من أمرى ما استدبرت لجعلتها عمرة لأنه كان له أن يفعل وألا يفعل وقد قال الله تعالى ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء ، لأنه كان له أن يفعل ما يشاء مما لم ينزل عليه فيه وحى واستأذنه المخلفون فى التخلف واعتذروا فاختار أيسر الأمرين تكرما وتفضلا منه » . ويضيف : « ووافق على ذلك قوم فقالوا : ذكر العفو هنا لم يكن عن تقدم ذنب

---

(١١) راجع ما قاله الزمخشرى فى الآية ج ٢ ص ١٩٢ .
(١٢) راجع القرطبى ج ٨ ص ١٥٤ .

وانما هو استفتاح كلام جرت عادة العرب أن تخاطب بمثله لمن تعظمه وترفع من قدره يقصدون بذلك الدعاء له فيقولون : «أصلح الله الأمير، كان كذا وكذا فعلى هذا صيغته صيغة الخبر ومعناه الدعاء »(١٣) •

أما صاحب « روح المعانى » وهو العلامة الألوسى فهو يخرج الاستفهام فى صورة عتاب لطيف رقيق تفوح فيه رائحة التعظيم لقدره ﷺ ، ثم يختم كلامه فى الآية بأن التأدب مع النبى ﷺ — وعدم تحميل النص عبارات التخطئة والذم لفعله — ﷺ — واجب لأن الله تعالى أجله ولطف به فى الكناية عما أراد • يقول الألوسى : « كأنه قيل : لم سارعت الى الاذن لهم ولم تتوقف حتى ينجلى الأمر، كما هو قضية الحزم اللائق بشأنك الرفيع يا سيد أولى العزم » • ويضيف : « وفى تصدير الخطاب بما صدر به تعظيم لقدر النبى — ﷺ — وتوقير لحرمته — ﷺ — ويضيف ناقلا عن الانتصاف «وليس للزمخشرى أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير وهو بين أحد الأمرين : اما أن لا يكون هو المراد أو يكون ولكن قد أجل الله تعالى نبيه الكريم عن مخاطبته بذلك ولطف به فى الكناية عنه أفلا يتأدب بآداب الله خصوصا فى حق المصطفى — ﷺ — فعلى التقديرين هو ذاهل عما يجب من حقه — ﷺ (١٤) •

ونحن نرى ما رآه الألوسى • وتركيب الآية ومطلعها الدعائى ثم الاستفهام المجازى يعين على ذلك •

٢ — والآية ٢٥ من الشورى تعطف جملة العفو عن السيئات على صلة الموصول المتقدم لكشف وبيان أن ذلك من أخص صفاته تعالى

---

(١٣) راجع ذلك فى تفسير أبى حيان المجلد الخامس ص ٤٧ •
(١٤) راجع الآلوسى جـ ١٠ ص ١٠٧ — ١٠٨ •

والا من يعفو عن العباد ومن يقبل العثرة ومن يجيب المضطر « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » .

وايقاع العفو هنا عن جنس السيئات صغيرها وكبيرها ، وهذا من شأنه أن يحث على التوبة وعلى الأمل فى الله تعالى وما على العاصى الا أن يقترب من جناب العلى العظيم ومعه توبته النصوح مهما كانت ذنوبه يقول الزمخشرى « وهو الذى .. ويعفو — عن الكبائر اذا تيب عنها وعن الصغائر اذا اجتنبت الكبائر »(١٥) . وهذا شمول مبارك وعفو عام لكل تائب وقع تحت عفوه تعالى وصادف ارادته ومشيئته .

٣ — والآية ٣٠ من الشورى تستأنف العفو عن الكثير بعدما أفصحت فى أسلوب شرطى خبرى مترابط أن ما يقع من مصائب للانسان انما هو بسبب جرمه وذنوبه وأن العفو من الله يقع عن كثير من هذه الذنوب سواء كان صاحبها من أهل الطاعة أو المعصية .

يقول الزمخشرى « والآية مقصوصة بالمجرمين ، ولا يمنع أن يستوفى الله عقاب المجرم ويعفو عن بعض ، فأما لا جرم له كالأنبياء والأطفال والمجانين فهؤلاء اذا أصابهم شىء من ألم أو غيره فللعوض الموفى والمصلحة »(١٦) .

ويضيف على ذلك أبو السعود : « ويعفو عن كثير — من الذنوب فلا يعاقب عليها »(١٧) .

٤ — والآية ٣٤ من الشورى تحكى فى أسلوب خبرى معطوف على أسلوب شرطى يخبر عن مشيئته تعالى وقدرته وهيمنته وفى ذات

---

(١٥) راجع الكشاف ج ٣ ص ٤٦٩ . وكذا فى أبى السعود ج ٨ ص ٣١ .

(١٦) راجع الكشاف ج ٣ ص ٤٧٠ .

(١٧) راجع أبو السعود ج ٨ ص ٣٣ .

اللحظة تتداخل رحمته وعفوه ويسبقان غضبه تعالى فبعد أن حكت الآية السابقة ٣٣ : ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره •• » ثم : « أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير » فآيتنا بعفوها تابعة لسابقتها بعطفها لأن المعنى كما يقول الزمخشرى « ان يشأ يبتلى المسافرين فى البحر باحدى بليتين : اما أن يسكن الريح فيركد الجوارى على متن البحر ويمنعون من الجرى • واما أن يرسل الريح عاصفة فيهلكن اغراقا بسبب ما كسبوا من الذنوب » • ويضيف : « ويعف عن كثير — منها • فان قلت : علام عطف يوبقهن ؟ قلت : على يسكن لأن المعنى ان يشأ يسكن الريح فيركدن أو يعصفها فيغرقن بعصفها •

فان قلت : فما معنى ادخال العفو فى حكم الايباق حيث جزم جزمه ؟ قلت معناه : أو ان يشأ يهلك ناسا وينج ناسا على طريق العفو عنهم »(١٨) •

وفى ربط العفو بالايباق يمكن لمح قيمة هذا العفو فاسناد الايباق الى ضميره تعالى بمعنى الاهلاك ، وايقاعه على الفلك والسفن مع أنها لم تصنع ذنبا ولكن لقصد اهلاك من فيها وهم أهلها وأصحابها لفى ذلك عظيم الأثر وكبير الهول فاذا ما أردف الله بذكر العفو هدأت الثائرة وبدت بوادر الرحمة والتجاوز وترك العقاب • وفى ذلك مد وجزر لمشاعر المتلقى عن الله حتى يكون — دوما — على حذر من بطشه وفى الحظة ذاتها ، لا يفوته التعلق بحبال عفوه وصفحه وغفره •

يقول فى ذلك المعنى أبو السعود « وايقاع الايباق عليهن مع أنه حال أهلهن للمبالغة والتهويل • واجراء حكمه على العفو فى قوله تعالى

---

(١٨) الكشاف ج ٣ ص ٤٧١ •

« ويعف عن كثير » لما أن المعنى أو يرسلها فيوبق ناسا وينجو آخرين بطريق العفو عنهم »(١٩) .

أما آيات القسم الثانى من الجهة الأولى فهى ثمانى آيات وهى تتلاقى فى صور مغرية من العفو تحث على التوبة لأنها تنتظم معظم الخطايا — ان لم يكن مجملها بشرط أن يعقبها — من العبد — توبة .

والآيات الثمانى هى :

١ — ٥٢ من البقرة ، قول الله تعالى « ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون » .

٢ — ١٨٧ من البقرة ، قول الله تعالى : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهم وابتغوا ما كتب الله لكم ... الخ الآية » .

٣ — ١٥٢ من آل عمران ، قول الله تعالى « ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين .

٤ — ١٥٥ من آل عمران ، قول الله تعالى « ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حليم » .

٥ — ١٥٣ من النساء ، قول الله تعالى « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا

---

(١٩) أبو السعود ج ٨ ص ٣٣ .

الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا » .

٦ — ٦٥ من المائدة ، قول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام » .

٧ — ١٠١ من المائدة ، قول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم » .

٨ — ٦٦ من التوبة ، قول الله تعالى « لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم ان نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين » .

وبالتأمل فى مجموع هذه الآيات الثمانى نلحظ ما يلى :

١ — أن الآيات مع تصويرها الرائع لعفو الله وحثا على التوبة ، نجدها قد انتظمت معظم الذنوب التى يتعرض لها الانسان فمنها عفو عن شرك بالله اثر توبة كما تحكى آية ٥٢ من البقرة ، ومنها عفو عن وقوع فى محظور كما تحكى آية ١٨٧ من البقرة ، ومنها عفو عن عصيان وفشل وتنازع كما تحكى آية ١٥٢ من آل عمران ، ومنها عفو عن ذنوب جلبت هزائم ولكن سبق العفو بالندم والرجوع كما تحكى آية ١٥٥ من آل عمران .

ومنها عفو عن أمور قد تقع قياسا على عفوه تعالى عن عبدة العجل كما تحكى آية ١٥٣ من النساء ، ومنها عفو عما يقع قبل العلم أو قبل الدخول فى الدين كما تحكى آية ٩٥ من المائدة ، ومنها عفو عما سلف

وتحذير من تكراره كما تحكى آية ١٠١ من المائدة ، ومنها عفو اثر توقف عن الذنب أو عفو عما قل جرمه من المنافقين كما تحكى آيـة ٦٦ من التوبة • هذا من ناحية •

٢ ــ ومن ناحية أخرى نجد الآياتقد صيغت صياغات حاكية لعفو الله الواسع من جهة وللحث على التوبة من جهة أخرى مع التنبيه على أخذ الحذر مقابل التأكيد على العفو لمسح أثر الذنب وتخيله لصاحبه فالآية الأولى من الآيات الثمانى « ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون » اخبار بالعفو ، وذكر للمعفو عنه وخطابه بذلك امعانا فى تحسسه لكرم الله وزيادة فى طمأنته ، واشارة الى الذنب بلام البعـد تعبيرا عن الجناية والاقتراف الآثم ، وحثا على عمل جديد وصـفحة جديدة من الشكر والالتزام بالطاعة « لعلكم تشكرون » •

يقول الزمخشرى فى الآية « ثم عفونا عنكم ــ حين تبتم ، من بعد ذلك ــ من بعد ارتكابكم الأمر العظيم وهو اتخاذكم العجل « لعلكم تشكرون ــ ارادة أن تشكروا النعمة فى العفو عنكم » (٢٠) •

والعلامة الرازى يعرف العفو ويحدده ويشير الى التوبـة فى السياق ويلمح التبشير لأمة محمد ﷺ فيقول « العفو ، اسم لاسـقاط العقاب المستحق • ولا شك فى حصول التوبة فى هذه الصوره لقـوله تعالى : «فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم»•واذا ثبت أنه تعالى عفا عن كفار قوم موسى فلأن يعفو عن فساق أمة محمد ﷺ ــ مع أنهم خير أمة أخرجت للناس ــ كان أولى »(٢١) •

بينما يلمح العلامة أبو السعود بلاغة الاشارة بالبعـد المؤذن بالمرتبة بين الجريمة والعفو عنها ، كما يشير الى المطلوب منهم اثر ذلك

---

(٢٠) الكشـــاف ج ١ ص ٢٨٠ •
(٢١) تفسير الرازى ج ٣ ص ٧٧ •

والالتزام به فيقول « وقوله تعالى : من بعد ذلك — أى من بعد الاتخاذ الذى هو منتاه فى القبح للايذان بكمال بعد العفو بعد تلك المرتبة من الظلم • لعلكم تشكرون — لكى تشكروا نعمة العفو وتستمروا بعد ذلك على الطاعة » (٢٢) •

والآية الثانية « فتاب عليكم وعفا عنكم » فيها جمع بين التوبة والعفو اشعارا بترابطهما عند الله تعالى ، تكرما منه وفضلا • ويزيد من ثبات ذلك وتوكيده والطمأنة به ، تكرار صيغة الماضى فى الفعلين الموغلين فى المضى وتكرار كاف الخطاب لمخاطب واحد امعانا فى طمأنته وحثه على الشكر بعد رفع الحرج عنهم فقد كان القوم يتحرجون ويظلمون أنفسهم بمنعها حظوظها التى شرعت لها • وجانب الرحمة فى الآية من قوله تعالى « علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم » • فسبق علمه أدى الى عفوه والتوسعة عليهم بأن يأكلوا ويشربوا ويأتوا نساءهم كل الليل حتى يطلع الفجر دون أن ينقص أجر صيامهم أو تخدش النية ليلا •

يقول الكشاف فى الآية « تختانون أنفسكم — تظلمونها وتنقصونها حظها من الخير • والاختيان من الخيانة كالاكتساب من الكسب فيه زيادة وشدة • فتاب عليكم — حين تبتم مما ارتكبتم من المحظور » (٢٣) •

ويلمح العلامة الرازى معنى وأثر التوبة فى الآية وكذا العفو فيقول : « أما قوله تعالى : فتاب عليكم — فمعناه على قول أبى مسلم: فرجع عليكم بالاذن عليكم فيه • أما قوله : وعفا عنكم — فعلى قول

---

(٢٢) تفسير أبو السعود ج ١ ص ١٠١ •
(٢٣) الكشاف ج ١ ص ٣٣٧ •

أبى مسلم معناه : وسع عليكم أن أباح لكم الأكل والشرب والمعاشرة كل الليل » (٢٤) .

وعن ربط العفو بالتوبة وأثر ذلك على الذنب محوا ودرسا ، يقول أبو السعود « فتاب عليكم — عطف على علم أى تاب عليكم لما تبتم مما اقترفتموه . وعفا عنكم — أى محا أثره عنكم » (٢٥) .

وعن منازعاتهم مع أنفسهم ومع رغباتهم الحبيسة ، ثم حلول عفو الله عنهم وما يصوره ذلك من تمام المراقبة وكمال الرحمة ، يقول صاحب الظلال فى الآية « وهذه الخيانة لأنفسهم التى يحدثهم عنها ، تتمثل فى الهواتف الحبيسة والرغبات المكبوتة ، أو تتمثل فى الفعل ذاته . وقد ورد أن بعضهم أتاه . وفى كلتا الحالين لقد تاب عليهم وعفا عنهم منذ ظهر ضعفهم وعلمه الله منهم ، فأباح لهم ما كانوا يختانون فيه أنفسهم » (٢٦) .

والآية الثالثة « ولقد عفا عنكم » توكيد لوقوع العفو عن المخاطبين بعد عصيانهم وتنازعهم وفشلهم حتى وقعت الهزيمة لهم فى غزوة أحد . وهذه رحمة عظيمة تخلق نفوسا عالية لا تقتلها الهزائم ولا تغرها الانتصارات يقول الزمخشرى موضحا معنى الفشل والتنازع ثم يوضح علة شمول العفو لهم فيقول « والفشل : الجبن وضعف الرأى . والتنازع : قول بعضهم : قد انهزم المشركون فما موقفنا هنا وقول الآخرين : لا نخالف أمر رسول الله ﷺ » .

ويضيف الزمخشرى « ولقد عفا عنكم — لما علم من ندمكم على ما فرط منكم من عصيان أمر رسول الله ﷺ . والله ذو فضل على

---

(٢٤) تفسير الرازى ج ٥ ص ١٠٧ .
(٢٥) تفسير أبو السعود ج ١ ص ٢٠١ .
(٢٦) تفسير الظلال ج ٢ ص ١٧٥ .

المؤمنين ــ يتفضل عليهم بالعفو أو هو متفضل عليهم فى جميع الأحوال سواء أديل لهم أو أديل عليهم لأن الابتلاء رحمة كما أن النصر رحمة » (٢٧) •

ومن جميل مناقشات العلامة الرازى أنه يدلل على عظيم عفو الله وسعة كرمه الذى يشمل أهل الكبائر والصغائر وأن الصغيرة يتوب الله على صاحبه ويعفو عنه والكبيرة قد يعفو بمحض فضله وكرمه • والآية هنا تحكى ما حدث من جمع من الصحابة تخاذلوا حتى هزم المسلمون ونتج على ذلك قتل جمع عظيم من أكابرهم ، وهذه كبيرة ، زيادة على أن التولى يوم الزحف كبيرة وهم قد نفروا الى الغنائم فانهال العدو عليهم فهزمهم •

والاخبار بالعفو عنهم مدعاة للتبشير بواسع كرم الله وعدم تقنيط العاصى يقول الرازى « واعلم أن الذنب لا شك أنه كان كبيرة لأنهم خالفوا صريح نص رسول الله ﷺ وصارت تلك المخالفة سببا لانهزام المسلمين وقتل جمع عظيم من أكابرهم ومعلوم أن كل ذلك من باب الكبائر •

وأيضا ظاهر قوله تعالى : ومن يولهم يومئذ دبره ــ يدل على كونه كبيرة ثم ان ظاهر هذه الآية يدل على أنه تعالى عفا عنهم من غير توبة لأن التوبة غير مذكورة فصار هذا دليلا على أنه تعالى قد يعفو عن أصحاب الكبائر » (٢٨) •

ويربط العلامة أبو السعود جملة العفو « فى الآية : بما بعدها ويجعله مقررا لسابقه ومؤذنا بأن الأمر تفضل وتكرم لا ايجاب ولا الزام فيقول « ولقد عفا عنكم ــ تفضلا ولما علم من ندمكم على

---

(٢٧) الكشاف ج ١ ص ٤٧١ •
(٢٨) الرازى ج ٩ ص ٣٨ •

المخالفة • والله ذو فضل على المؤمنين ــ تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومؤذن بأن ذلك العفو بطريق التفضل والاحسان لا بطريق الوجوب عليه » ويضيف ملمحا لتنكير « فضل » ولتحديد المراد بالمؤمنين فيقول « والتنكير للتفخيم ، والمراد بالمؤمنين اما المخاطبون والاظهار فى موقع الاضمار للتشريف والاشعار بعلة الحكم واما الجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا » (٢٩) •

والآية الرابعة « ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حليم » وهى تتكلم عن نفس القوم فى المعركة نفسها وهم الرماة الذين خالفوا أمر رسول الله ﷺ • والزمخشرى يقف مع صدر الآية ليربطه ببقيتها ليؤسس الهزيمة على اطاعتهم للشيطان • وأنه لما اعتذروا قبل الله توبتهم لأنه لا يعاجل بالعقوبة يقول الزمخشرى « ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ــ استزلهم ــ طلب منهم الزال ودعاهم اليه ببعض ما كسبوا من ذنوبهم ومعناه: ان الذين انهزموا يوم أحد كان السبب فى توليهم أنهم كانوا أطاعوا الشيطان فاقترفوا ذنوبا فلذلك منعهم التأييد وتقوية القلوب حتى تولوا • ولقد عفا الله عنهم ــ لتوبتهم واعتذارهم ــ ان الله غفور ــ للذنوب ، حليم ــ لا يعاجل بالعقوبة » (٣٠) •

ويعاود العلامة الرازى النظر فى نوع هذا الذنب ويذكر ما يدلل على أنه لم يكن كبيرة ، وما يستنبط من الآية أنه كبيرة على رأى المعتزلة ثم يذكر أن العفو عن الكبائر ليس بعيدا من الله بل هو واقع بدلالة الآية •

يقول الرازى : « ولقد عفا الله عنهم ــ واعلم أن هذه الآية دلت

---

(٢٩) أبو السعود جـ ٢ ص ٩٩ •
(٣٠) الكشاف جـ ١ ص ٤٧٣ •

على أن تلك الزلة ما كانت بسبب الكفر فان العفو عن الكفر لا يجوز لقوله تعالى : « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » قال القاضى : والأقرب أن ذلك الذنب كان من الصغائر ويدل عليه وجهان :

الأول : أنه لا يكاد فى الكبائر يقال انها زلة انما يقال ذلك فى الصغائر .

الثانى : أن القوم ظنوا أن الهزيمة لما وقعت على المشركين لم يبق الى ثباتهم فى ذلك المكان حاجة ، فلا جرم انتقلوا عنه وتحولوا الى طلب الغنيمة ومثل هذا لا يبعد أن يكون من باب الصغائر لأن للاجتهاد فيه مدخلا ثم قال تعالى ان الله غفور حليم أى غفور لمن تاب وأناب ، حليم لا يعاجل بالعقوبة . وقد احتج أصحابنا بهذه الآية على أن ذلك الذنب كان من الكبائر لأنه لو كان من الصغائر لوجب على قول المعتزلة أن يعفو عنه ، ولو كان العفو عنه واجبا لما حسن التمدح به لأن من يظلم انسانا فانه لا يحسن أن يمتدح بأنه عفا عنه وغفر له فلما ذكر هذا التمدح علمنا أن ذلك الذنب كان من الكبائر ولما عفا عنه علمنا أن العفو عن الكبائر واقع »(٣١) .

وملاحظ هنا أن المنحى البلاغى لفهم الآية قد أدى الى تلك النتيجة وذلك بجعل الجملة المقررة « ان الله غفور حليم » تذييلا لما سبقها وتعليلا للحكم وحثا على مدح الله تعالى وشكره بأن كان غفورا رحيما ولولا ذلك ما عفا عن هذا العظيم من الذنب.وكذلك يقول أبو السعود « والجملة (ان الله غفور حليم) تعليل لما قبلها على سبيل التحقيق وفى اظهار الجلالة تربية للمهابة وتأكيد للتعليل »(٣٢) .

---

(٣١) الرازى ج ٩ ص ٥٢ .

(٣٢) أبو السعود ج ٢ ص ١٠٣ .

أما صاحب الظلال فيحوم حول ما كسبه الرماة حتى زلوا به ثم يعلل لهجمة الشيطان وتوفيقها فيقول : « وقد تكون الاشارة فى هذه الآية خاصة بالرماة الذين جال فى نفوسهم الطمع فى الغنيمة كما جال فيها أن رسول الله سيحرمهم أنصبتهم فكان هذا هو الذى كسبوه وهو الذى استزلهم الشيطان به » . ويضيف ملمحا نفسيا عقديا بالغ الأهمية فيقول « ولكنها فى عمومها تصوير لحالة النفس البشرية حين ترتكب الخطيئة فتفقد ثقتها فى قوتها ويضعف بالله ارتباطها ويختل توازنها وتماسكها وتصبح عرضة للوساوس والهواجس بسبب تخلخل صلتها بالله وثقتها من رضاه ! وعندئذ يجد الشيطان طريقه الى هذه النفس فيقودها الى الزلة بعد الزلة »(٣٣) .

والآية الخامسة تحكى فى أسلوب خبرى قوى عفو الله عن عبدة العجل لما تابوا ثم نصر الله نبيهم وفى هذا الاسلوب الخبرى حث وتبشير للرسول الكريم وأمته على كبير الثقة فى نصرة الله وعظيم الرجاء فى عفوه .

يقول الرازى « فعفونا عن ذلك — يعنى لم نستأصل عبدة العجل . وآتينا موسى سلطانا مبينا . يعنى أن قوم موسى وان كانوا قد بالغوا فى اظهار اللجاج والعناد معه لكنا نصرناه وقويناه فعظم أمره وضعف خصمه» ويضيف «وفيه بشارة للرسول — ﷺ — »(٣٤) .

وان كان الرازى قد صرح ببشارة النبى فان أبا السعود يذكر ما فى الآية من نفع لأمته — ﷺ — ان تابوا من خطاياهم . يقول أبو السعود « فعفونا عن ذلك — ولم نستأصلهم وكانوا أحقاء به قيل هو استدعاء لهم الى التوبة به . كأنه قيل ان أولئك الذين أجرموا

---

(٣٣) الظلال ج ٤ ص ٤٩٧ .

(٣٤) الرازى ج ١١ ص ٩٥/٩٦ .

تابوا فعفونا عنهم فتوبوا أنتم أيضا حتى نعفو عنكم »(٣٥) فاستدعاء الله لليهود بأن يتوبوا حتى يعفو عنهم كما عفا عن السابقين « كما يحكى ذلك سبب النزول » فان فيه أملا كبيرا لأمة محمد — ﷺ — فهم أولى من اليهود بعفو الله • فليتوبوا حتى يكونوا من أهل عفو الله تعالى •

والآية السادسة تخبر عن عفو الله المشوب بالتحذير من الوقوع فى المستقبل وتكرار الخطيئة المعفو عنها » عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام » وايلاء جملة العفو بأسلوب الشرط الخبرى الثابت وايقاع الفاء فى صدر جوابه لمذر بانتقام شديد لا ينفع معه كفارة ولا تقبل بل يقوم الانتقام مقاما كافيا ومانعا، وفى ذلك ما فيه من الهول وخطورة التعرض لبطش الله وغلبته لاسيما، وقد زيلت الآية بقوله تعالى « والله عزيز ذو انتقام » امعانا فى ثبات العزة والقوة لله تعالى حتى يخشى بأسه ويؤمن — بالطاعة انتقامه •

يقول الزمخشرى فى ذلك ، ويتابعه أبو السعود • عفا الله عما سلف — لكم من الصيد فى حال الاحرام قبل أن تراجعوا رسول الله — ﷺ — وتسألوه عن جوازه • وقيل عما سلف لكم فى الجاهلية منه لأنهم كانوا متعبدين بشرائع من قبلهم وكان الصيد فيها محرما »(٣٦) بينما يلمح الرازى بلاغة ودلالة الفاء فى جواب الشرط المفعم بالتحذير من الوقوع مرة ثانية فى المخالفة يقول : « ومن عاد اليه مرة ثانية فلا كفارة لجرمه بل ينتقم الله منه • وحجة هذا القول : أن الفاء فى قوله : فينتقم الله منه — فاء الجزاء والجزاء هو الكافى • فهذا يقتضى

---

(٣٥) أبو السعود ج ٢ ص ٢٤٩ •
(٣٦) الكشاف ج ١ ص ٦٤٥ وأبو السعود ج ٣ ص ٨١ •

أن هذا الانتقام كاف فى هذا الذنب وكونه كافيا يمنع من وجوب شىء آخر وذلك يقتضى أن لا يجب الجزاء عليه »(٣٧) •

والآية السابقة تخبر عن عفو الله اثر تحذير لهم ونهى عن الاقتراب مما يسوء لكنهم ان عادوا عوقبوا وذلك فى مجال السؤال وترقب الاجابة عنه ، فليس كل ما يقبل السؤال يسأل عنه • وهذا توجيه ربانى على لأمة محمد — ﷺ — فخاطبهم ربهم وأقبل عليهم بالنداء ووصف الايمان ثم أعقب ذلك نهى وتوجيه ثم أعقب النهى تعليل له فى أسلوب شرطى موضح ثم يختم لهم بالعفو على ألا يعودوا لمثلها «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم ••• عفا الله عنها والله غفور حليم » يقول الزمخشرى « والجملة الشرطية : ان تبد لكم تسؤكم — صفة لأشياء والمعنى : لا تكثروا مسألة رسول الله — ﷺ — حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم ان أفتاكم بها وكلفكم اياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها » • ويضيف : « عفا الله عنها — عفا الله ما سلف من مسألتكم فلا تعودوا لمثلها »(٣٨) •

ويلمح أبو السعود فى ذكر العفو اشعارا بأن نهيهم كان على معصية يؤاخذ عليها لكن الله عفا وأن ذلك من أجل أن يتحفزوا للطاعة ويمتثلوا • يقول أبو السعود « عفا الله عنها — استئناف مسوق لبيان أن نهيهم عنها لم يكن لمجرد صيانتهم عن المساءة بل لأنها فى نفسها معصية مستتبعة للمؤاخذة وقد عفا عنها • وفيها من حثهم على الجد فى الانتهاء عنها ما لا يخفى(٣٩) •

والآية الثامنة والأخيرة تحكى فى أسلوب شرطى موجه للمخاطبين ومذيلا بعلة الحكم وضوء الرحمة فيه واشارة اللطف هو العفو عند

---

(٣٧) الرازى جـ ١٢ ص ٩٦ •
(٣٨) الكشاف جـ ١ ص ٦٤٨ • وكذا فى الرازى جـ ١٢ ص ١٠٧ •
(٣٩) أبو السعود جـ ٣ ص ٨٥ — ٨٦ •

التوقف عن الذنب أو العفو عمن أجرم أقل من صاحبه فى النفـــاق ، وذلك مرفأ للظالمين أنفسهم وملجأ معين على الاسراع بالتوقف والتوبة وبالتضليل بل والكف عن المعصية يقـــول ربنا « أن نعف عن طـــائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين » •

يقول الزمخشرى : « ان نعف عن طائفة منكم ــ باحداثهم التوبة واخلاصهم الايمان بعد النفاق • نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ــ مصرين على النفاق غير تائبين منه »(٤٠) •

بينما يذكر القرطبى أن الآية تحكى عن « ثلاثة نفر هزىء اثنان وضحك واحد فالمعفو عنه هو الذى ضـــحك ولم يتكلم • والطـــائفة الجماعة ويقال للواحد على معنى : نفس طائفة • قيل يجوز أن تكون الطائفة اذا أريد بها الواحد طائفا والهاء للمبالغة »(٤١) •

أما آيات القسم الثالث من الجهة الأولى فهى خمس آيات تحكى فى مجموعها تلازما واضحا بين العفو والتيسير والرحمة ورفع الحرج وطمأنة المخطىء بالغفران اثر توبة نصوح والآيات هى :

٢٨٦ البقرة ، ٤٣ ، ٩٩ من النساء ، ٦٠ الحج ، ٢ المجـــادلة • ونصوصها بالترتيب هى :

آية البقرة : قوله تعالى : « لا يكلف الله نفسا الا وســـعها ••• ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »•وآية النساء ٤٣: « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى •• وان كنتـــم

---

(٤٠) الكشـــاف ج ٢ ص ٢٠٠ •
(٤١) القرطبى ج ٨ ص ١٩٩ •

مرضى أو على سفر أو .. فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ان الله كان عفوا غفورا » .

وآيتها ٩٩ : الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ... فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا » .

وآية الحج : ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور .

وآية المجادلة : الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم ان أمهاتهم .. وان الله لعفو غفور » .

وبالنظر فى مجمل الآيات الخمس نجد أنها تجمع وتقرن مع العفو . الغفران والرحمة بل والنصرة كما فى آية البقرة . وتجمع مع العفو: الغفران مع اشاعة جو من التيسير ورفع المشقة عن ذوى الأعذار . وذلك فى آية النساء ٤٣ وفى آيتها الثانية تجمع مع العفو الغفران كذلك مع نشر الرحمة والتيسير على المستضعفين وتجمع العفو والغفران كذلك تيسيرا لمن ارتكب خلاف الأولى كما فى الحج أو تجمعهما تيسيرا ورحمة بمن زلت كلمته وضاق صدره كما فى آية المجادلة .

ورائحة اليسر ورفع المشقة تلوح شذية عبقه من جو آية البقرة التى بدأت بأسلوب خبرى يحكيه ربنا ويدعم فحواه بأسلوب خبرى آخر ثم تسوق تضرعات ودعوات المؤمنين وبأسلوب انشائى مفعم بالضعف ومملوء بالثقة فى الله بدلالتى تكرار لفظة « ربنا » وتكرار الدعاء بصيغة النهى المجازى وختمها بالجملة المقررة والمعللة والمؤكدة — فى آن واحد — على أهليته جل جلاله على أن يحقق ذلك كله وفوقه « أنت مولانا » ثم تعود مرة أخرى لنغمة الطلب والدعاء امعانا فى الانضواء تحت رحابه الرحيب وجنابه الفسيح . وكل الآية بمجموع أخبارها وانشاءاتها تعد خبرا صادقا من الله تعالى يحث على اقرار

العدل وتثبيت الثقة فى النفوس تجاه الله تعالى مع دفع الى طلب العفو والرحمة والنصرة كلما قابل الانسان وواجهه ما يستدعى واحدا منها ثقة فى يسر الله وعفوه ورحمته •

يقول الزمخشرى فى آية البقرة « واعف عنا ــ طلبوا الاعفاء عن التكليفات الشاقة التى كلفها الله من قبلهم ، ثم عما نزل عليهم من العقوبات على تفريطهم فى المحافظة عليها »(٤٢) •

أما العلامة الرازى فيربط طلب الترك فى الآية ببعضه «لا تؤاخذنا ــ لا تحمل علينا ــ لا تحملنا » مسبوقة بلفظة « ربنا » ويخص طلب الفعل مربوطا ببعضه « اعف ــ اغفر ــ ارحمنا » ويعلل للفرق بين طلب الفعل وطلب الترك تعبيرا عن احتياج الانسان لأن يترك الله عنه ما يثقله تارة وينزل الله عليه ما يخفف عنه تارة أخرى •

ثم يعرج للربط القوى بين المغفرة والرحمة وجمعهما مع العفو، فيقول الرازى « اعلم أن تلك الأنواع الثلاثة من الأدعية كان المطلوب فيها الترك وكانت مقرونة بلفظ ربنا • وأما هذا الدعاء الرابع فقد حذف منه لفظ ربنا وظاهره يدل على طلب الفعل ففيه سؤالان :

لم لم يذكر هنا لفظ ربنا ؟ وما الفرق بين العفو والمغفرة والرحمة ؟ والجواب عن الأول أن النداء انما يحتاج اليه عند البعد اما عند القرب فلا ، وانما حذف النداء اشعارا بأن العبد اذا واظب على التضرع نال القرب من الله تعالى • والثانى : أن العفو أن يسقط عنه العقاب والمغفرة أن يستر عليه جرمه صونا له من عذاب التخجيل والفضيحة • والأول هو العذاب الجسمانى والثانى هو العذاب الروحانى • فلما تخلص منهما أقبل على طلب الثواب وهو قسمان : جسمانى وهو نعيم الجنة ولذاتها وطيباتها ، وثواب روحانى وغايته

(٤٢) الكشاف ج ١ ص ٤٠٨ •

أن يتجلى له نور جلال الله • فقوله وارحمنا طلب للثواب الجسمانى وقوله أنت مولانا ، طلب للثواب الروحانى »(٤٣) •

بينما يلمح أبو السعود بلاغة تقديم العفو والمغفرة على الرحمة وأن ذلك طلب العقلاء الذين يتخلون عن الرذائل ثم يطلبون التحلى بالفضائل •

يقول أبو السعود « واعف عنا ــ أى آثار ذنوبنا ، واغفر لنا ــ أى استر عيوبنا ولا تفضحنا على رءوس الأشهاد • وارحمنا ــ تعطف بنا وتفضل علينا • وتقديم طلب العفو والمغفرة على طلب الرحمة لما أن التخلية سابقة على التحلية »(٤٤) • بينما يرى صاحب الظلال فى تلك الآية ــ التى ختمت بها أطول سورة فى القرآن ــ تلخيصا للسورة وللعقيدة ولحال المؤمنين مع ربهم ، فيقول فى أسلوب رخى وتعبير ندى وفهم واسع : « انه الختام الذى يلخص السورة ويلخص العقيدة ويلخص تصور المؤمنين وحالهم مع ربهم فى كل حين • وهذا هو قوام الأمر فى حس المؤمن : عمل بكل ما فى الوسع وشعور مع ذلك بالتقصير والعجز •• ورجاء بعد ذلك فى الله لا ينقطع وتطلع الى العفو والمغفرة والسماح • وأخيرا يلصق المؤمنون ظهورهم الى ركن الله وهم يهمون بالجهاد فى سبيله : أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »(٤٥) •

والآية الثانية وهى ٤٣ من النساء تخبر عن تيسير الله وترخيصه للمرء ان مرض أو سافر أو واجه ما فيه كلفه فالعفو هنا صادف محلا مفعما بالترقب والانتظار ، كل ذلك بجملة موغلة فى الثبات وضاربة فى القدم ، قدم صفات الله وجلاله ، ان الله كان عفوا غفورا • هكذا تختم الرخص وتذيل التيسيرات من لدن عفو غفور قطعا للشك وامعانا

---

(٤٣) تفسير الرازى ج ٧ ص ١٤٩ ــ ١٥٠ •
(٤٤) أبو السعود ج ١ ص ٢٧٧ •
(٤٥) الظلال ج ٣ ص ٣٤٧ •

فى الثقة • يقول الزمخشرى فى الآية « أن الله كان عفوا غفورا — كناية عن الترخيص والتيسير،لأن من كانت عادته أن يعفو عن الخطائين ويغفر لهم آثر أن يكون ميسرا غير معسر » • ويضيف كاشفا عن شمولية العفو وعمومية المغفرة تصويرا لليسر والترخيص للمترقبين لهما فيقول : « فان قلت كيف نظم فى سلك واحد بين المرضى والمسافرين وبين المحدثين والمجنبين ، والمرض والسفر سببان من أسباب الرخصة، والحدث سبب لوجود الوضوء ، والجنابة سبب لوجوب الغسل ؟ قلت: أراد سبحانه أن يرخص للذين وجب عليهم التطهر وهم عادمون الماء فى التيمم بالتراب فخص أولا من بينهم مرضاهم وسفرهم لأنهم المتقدمون فى استحقاق بيان الرخصة لهم بكثرة المرض والسفر وغلبتهما على سائر الأسباب الموجبة للرخصة ، ثم عم كل من وجب عليه التطهر وأعوزه الماء لخوف عدو أو سبع أو غير ذلك مما لا يكثر كثرة المرض السفر »(٤٦) •

بينما يلوح أبو السعود ببلاغة الختم فى الآية «ان الله كان عفوا غفورا » وأن ذلك مرتبط أشد ارتباط بما سبقه فالمرخص والميسر لعباده لابد وأن يكون هكذا ، فهذان الوصفان علة للتيسير والترخيص والمسامحة ، وهما — بذاتهما — ملازمان وملزومان للترخيص والتيسير فيكونان كناية عن ذلك • يقول أبو السعود « ان الله كان عفوا غفورا — تعليل للترخيص والتيسير وتقرير لهما فان من عادته المستمرة أن يعفو عن الخاطئين ويغفر للمذنبين لابد وأن يكون ميسرا لا معسرا ، وقيل هو كناية عنهما فان الترفيه والمسامحة من روادف العفو وتوابع الغفران »(٤٧) •

---

(٤٦) الكشاف جـ ١ ص ٥٢٩ •
وخلاصته فى الرازى جـ ١٠ ص ١١١ — ١١٢ •
(٤٧) أبو السعود جـ ٢ ص ١٨١ •

والآية ٩٩ من النساء تحكى ربطا آخر فى جهة أخرى من جهات الحياة وهى طروء الهجرة من الأوطان التى لا يستطاع فيها اقامة الشعائر الدينية وأن ذلك أمر لا نقاش فيه الا من ضعفت حاله وضاقت حيلته فلابد من شموله بالعفو والمغفرة • وارداف العفو بالمغفرة امعانا فى تطمين المستضعف وأن أمره قد ستره الله ولن يكشف لأحد سواه• يقول الزمخشرى فى الآية وجملة « لا يستطيعون » صفة للمستضعفين أو للرجال والنساء والولدان • فان قلت : لم قيل : عسى الله أن يعفو عنهم ــ بكلمة الاطماع ؟

قلت للدلالة على أن ترك الهجرة أمر مضيق لا توسعة فيه ، حتى ان المضطر البين الاضطرار من حقه أن يقول : عسى الله أن يعفو عنى فكيف بغيره(٤٨) وبذا تنسجم صفة الغفران مع كلمة الاطماع ويتغلب فيها وصف الرب على حال العبد فيغفر له ما رجاه وقد ضاقت يداه • ويذكر العلامة الرازى فى الآية أن تعلق المرء بوطنه قد يشده اليه وينفره من تركه مع القدرة على البحر وأن تلك مشقة على النفس تستدعى من الله العليم الخبير أن يعفو عن صاحبها • وتتناسق مع هذا المعنى كلمة الاطماع لا كلمة القطع لأن العاجز وان كان ضعيفا لكنه قد يعرض له ما يعينه على الهجرة ولو مع ضرب من المشقة(٤٩)•وقد حوى العلامة أبو السعود خلاصات ما ذكرناه عن الاعلامين السابقين، مع تبشير بالعفو وثقة فى الغفران حيث يقول « ان الله كان عفوا غفورا ــ تذييل مقرر لما قبله »(٥٠) •

أما الآية ٦٠ من الحج فهى تعطى ملمح التيسير فى جمع العفو مع المغفرة عمن ارتكب خلاف الأولى وشكل مع ربه شبه جناية وذلك

---

(٤٨) الكشاف ج ١ ص ٥٥٧ •
(٤٩) تأمل وراجع ما قاله الرازى ج ١١ ص ١٣ •
(٥٠) تأمل وراجع ما قاله أبو السعود ج ٢ ص ٢٣٣ •

اثر فورة مشاعره وإثارة حفيظته بما يجعله ينتقم مع وجود النص الذى يقدم على العفو على الانتقام ولو بالمثل • وأكد العفو والمغفرة لهذا المنتصر لنفسه لوجود شبهة معه تؤازره وهى شبهة الرد بالمثل مع وجود ما هو أرقى وأسمى من عفو وصفح • يقول الزمخشرى « والعقاب مبعوث من جهة الله عز وجل على الاخلال بالعقاب والعفو عن الجانى على طريق التنزيه لا التحريم ومندوب اليه ومستوجب عند الله المدح ان آثر ما ندب اليه وسلك سبيل التنزيه فحين لم يؤثر ذلك وانتصر وعاقب ولم ينظر فى قوله تعالى : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولمن صبر وغفر » أن ذلك لمن عزم الأمور ، ان الله لعفو غفور — أى لا يلومه على ترك ما بعثه عليه وهو ضامن لنصره من اخلاله بالعفو وانتقامه من الباغى عليه »(٥١)•

ويلمح العلامة الألوسى ما فى الآية من التنويه بمكان ومقام العفو ودقة التعبير بلفظة الجلالة فى مقام الاضمار اذ يقول « وفيه تعريض بمكان أولية العفو لأن ذكر الصفتين يدل على أن هناك شبه جناية ، واظهار الاسم الجليل فى مقام الاضمار للاشارة الى أن ذلك من مقتضى الألوهية »(٥٢) هذا بعدما ذكر صراحة كيف أن المعاقب لما انتقم ترك الأولى والأفضل اذ يقول : « ان الله لعفو غفور — تعليل للنصرة حيث كانت لمن ارتكب خلاف الأولى من العفو عن الجانى ، المندوب اليه والمستوجب للمدح عنده تعالى(٥٣) •

أما الآية الأخيرة وهى ، ٢ من المجادلة تحكى تلازم اليسر ورفع الحرج عمن ارتكب فعلا ينكره الشرع • وأن ضعف الانسان وخوره إزاء الشدائد يقابل بصفح وعفو من الله وغفران بشرط وجود الندم

---

(٥١) الكشاف ج ٣ ص ٢٠ •

(٥٢ ، ٥٣) الآلوسى ج ١٧ ص ١٨٩ •

والتوبة ، كل ذلك بأسلوب الخبر المؤكد عن الله زيادة فى التطمين وحثا على سرعة اللجأ الى الله تعالى • فان الذى يظاهر من امرأته ويجعلها فى درجة أمه التى ولدته هو معبر عن أمر ينكره الشرع لأن فيه قلبا للحقائق بدليل تنكير القول فى الآية « وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا » وتنكير الزور ، كذلك لما فى ذلك من شناعة الفعل والتحريف عن الحق ، يقول الزمخشرى فى مقابلة ذلك الزلل بعفو الله للنادم « وان الله لعفو غفور — أى لما سلف منه اذا تيب عنه ولم يعد اليه »(٥٤) •

وعن شناعة الفعل وقوله يقول أبو السعود منكرا من القول — على أن مناط التأكيد ليس صدور القول عنهم فانه أمر محقق بل كونه منكرا أى عند الشرع وعند العقل والطبع أيضا كما يشعر به تنكيره »(٥٥) •

ويتعلق بالقسم الأول فى هذا البحث وفى جهته الأولى التى تتعلق صفات العفو والصفح والغفران بالله تعالى ، آية هى الآية ٥ من الزخرف وهى ترد فيها كلمة الصفح بمعناها اللغوى وليست واقعة فى الآية بمعناها الشرعى المألوف من الله تعالى وذلك لحكمة بالغة فالمشركون كانوا يتمنون أن يترك الله انزال القرآن بلغتهم ويعرض عن كشفهم أمام أنفسهم وبلغتهم مع أن الحكمة أكبر من ذلك ولو فطنوا لآمنوا وسعدوا لأن القرآن شرفهم وذاع أخبارهم وأحيا لسانهم ووسع من مدى تعبيراتهم حتى تقوم الساعة • والآية هى قول الله تعالى : « أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين » •

والآية تحوى استفهاما مجازيا القصد منه الانكار والمعنى

---

(٥٤) الكشاف ج ٤ ص ٧٠ •
(٥٥) أبو السعود ج ٨ ص ٢١٦ •

لا يكون منا أن ننحى عنكم القرآن ونبعده • والآية كذلك ، تحوى شرطا واردا مع القطع به دون الشرط مع الجواب كما فيها ملمح التكريم للعرب تلك الأمة التى نزل بلغتها هذا الكتاب العزيز فكانت خير أمة أخرجت للناس ان هى تعاملت مع هذا الكتاب الذى نزل بلغتها واغترفت من بحر معانيه وأحالته الى سلوك طيب وفعل جميل•

يقول الزمخشرى فى الآية « أفنضرب عنكم الذكر صفحا — بمعنى أفننحى عنكم الذكر ونذوده عنكم • والفاء للعطف على محذوف تقديره : أنهملكم فنضرب عنكم الذكر ، انكار لأن يكون الأمر على خلاف ما قدم من انزال الكتاب وخلقه قرآنا عربيا ليعقلوه ويعلموا بمواجبه • وصفحا على وجهين :

اما مصدر من صفح عنه اذا أعرض واما بمعنى الجانب • ويضيف فان قلت : كيف استقام معنى ان الشرطية وقد كانوا مسرفين على البت ؟ قلت هو من الشرط الذى ذكرت أنه يصدر عن المدل بصحة الأمر المتحقق لثبوته كما يقول الأجير : ان كنت عملت لك فوفنى حقى، وهو عالم بذلك ولكنه يخيل فى كلامه أن تفريطك فى الخروج عن الحق فعل من له شك فى الاستحقاق مع وضوحه استجهالا له »(٥٦) • وفى أبى السعود فحواه مع تغيير فى العبارة ومنها قوله « وفيه اشعار باقتضاء الحكمة توجه الذكر اليهم وملازمته لهم كأنه يتهافت عليهم »(٥٧) •

والآن ، الى الجهة الثانية فى البحث ، وهى الآيات الخاصة بالرسول الكريم وسبق أن ذكرنا أنها آيات ست هى : ١٥٩ من آل عمران ، ١٣ ، ١٥ من المائدة ، ١٩٩ من الأعراف ، ٨٥ من الحجر ،

---

(٥٦) الكشاف ج ٣ ص ٤٩٩ •

(٥٧) أبو السعود ج ٨ ص ٤٠ •

٨٩ من الزخرف • ونصوصها كالتالى :

آية آل عمران:قوله تعالى : «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » • وآيتا المائدة هما : قول الله تعالى : فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظ مما ذكروا به ولاتزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين » • قوله تعالى « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » • وآية الأعراف هى قوله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » • وآية الحجر « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وان الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل » • وآية الزخرف هى « فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون » •

وبالتأمل فى مجموع الآيات نلحظ أن :

١ ــ ما أسند الى الرسول فيها هو العفو والصفح دون الغفران لأن الغفران هو ستر المخبوء عند من يعلمه وذلك خاص بالله تعالى ، ولكن قد يقال ان الغفر أسند الى الناس فى قوله تعالى « ولمن صبر وغفر » فلم لم يسند الى الرسول الأكرم ويمكن أن يكون الجواب من طريقين : الأول : أن نص الآية يقول « ولمن صبر وغفر » فالغفر مسبوق بالصبر والصبر يعنى عدم الجزع مما وقع فالحدث واقع ومعلوم وستره عظيم الأجر عند الله تعالى كما قال فى آية أخرى : « وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم » أى يعاملكم بالمثل : عفوا وصفحا وغفرا • الثانى : أن أسالب الآيات الخاصة

بالرسول الكريم أساليب انشائية طلبية وبصيغة الأمر من الله تعالى فلايتخيل أن يقول له ربه: فاعف واغفر أو اصفح واغفر لأن الغفران بمعنى ستر المعايب من مستلزمات العفو والصفح من ناحية ومن ناحية أخرى لو جيء بالأساليب خبرية فيخبر عن الرسول الكريم بأنه عفا وغفر قد يشتبه الأمر بينه وبين ربه ولا يفرق بينهما وهذا أمر حرص القرآن الكريم على الفصل فيه وحسم التعبيرات والمعانى وابعاده — ﷺ — عن شائبة الشرك مع الله تعالى • أما اسناد الغفر الى الناس فلا يثير شائبة ولا يعكر صافيا بل يعد من محامد الفاعلين له •

٢ — يلاحظ كذلك أن الآيات الستة ، خمس منها تحثه ، ﷺ على العفو تارة وعلى الصفح أخرى • والسادسة تخبر عنه بالعفو مع أعدائه • وهى متلاقية فى مجموعها لأن ما حثه الله عليه فقد فعله وبعد فعله يخبر الله عنه فصار خبرا بعد طلب فكأن منشئه وموجده هو الله تعالى فى الحالين • أما جانب العلو ورفع الشأن للرسول الكريم فى هذه الآيات فهو من طريقين : الأول ، طريق الشمولية للمعفو عنهم والمصفوح عنهم ، لأنهم قومه وأتباعه تارة ، وأعداءه ومخاصميه تارة أخرى • والثانى أن صفحه وعفوه لا لصفح وعفو غيره بل من نوع جميل ملازم للسلام والأمن مشفوع بالاستغفار والدعاء، فصلى الله عليه وسلم كلما عفا وصفح واستغفر وكلما اقتدى به مقتد من أمته •

٣ — يلاحظ كذلك أن ما حث عليه من عفو فى آيتين ، الأولى تخص قومه والثانية تشملهم وغيرهم • والأولى هى ١٥٩ من آل عمران والثانية هى ١٩٩ من الأعراف •

وكذلك ما حث عليه من صفح تارة يوصف بالجمال كما فى آية الحجر وتارة يشفع بالسلام والمهادنة كما فى آية الزخرف •

وتارة يحث عليهما معا كما فى آية ١٣ من المائدة • فهذه خمس آيات بالاضافة الى ما تخبر عن عفوه مع أعدائه وهى ١٥ من المائدة •

(أ) والآن الى آيات العفو الذى يحث عليه الرسول الكريم تجاه قومه والناس أجمعين وهما آيتا آل عمران والأعراف •

١ ــ آية آل عمران وهى توجه الطلب على الرسول الكريم ليعود بالخير الشامل لقومه فى كل مناحى حياتهم « فاعف ــ واستغفر لهم ــ وشاورهم » فقد حث على ما يستطيعه هو أولا ثم حث على ما هو عند الله ثم حث على ما يستطيعه فى شئون حربهم وسلمهم وبذا يكون جمع لهم من كل جهة ما يحيل حياتهم الى هدأة وراحة ونصر وتوفيق• يقول فى ذلك الزمخشرى : « فاعف عنهم ــ فيما يختص بك • واستغفر لهم ــ فيما يختص بحق الله تعالى اتماما للشفقة عليهم • وشاورهم فى الأمر ــ يعنى فى أمر الحرب ونحوه مما لاينزل عليه فيه وحى لتستظهر برأيهم ولما فيه من تطييب نفوسهم »(٥٩) •

والعلامة الرازى يربط بين عفو الله وعفو رسوله ثم يفرق بين العفو الصادر من رسول الله والعفو الصادر من الناس فيقول « ظاهر الأمر للوجوب • والفاء (فاعف) يدل على التعقيب فهذا يدل على أنه تعالى أوجب عليه أن يعفو عنهم فى الحال وهذا يدل على كمال الرحمة الالهية حيث عفا هو عنهم ثم أوجب على رسوله أن يعفو فى الحال عنهم • وقوله (فاعف عنهم) ايجاب للعفو على الرسول ﷺ ولما آل الأمر الى الأمة لم يوجبه عليهم بل ندبهم اليه فقال : والعافين عن الناس ليعلم أن حسنات الأبرار سيئات المقربين »(٦٠) •

٢ ــ أما آية الأعراف فهى تشمل بعفوها الناس أجمعين وتجعل كل ما تجود به أخلاقهم وتيسر عليهم من أفعالهم مقبولا عنده صلى الله عليه وسلم بغية أن يلازموه ويتبعوه لا أن ينفروا منه ويتركوه ، يقول

---

(٥٩) الكشاف ج ١ ص ٤٧٤ •
(٦٠) الرازي ج ٩ ص ٦٤ ــ ٦٥ •

الزمخشرى « خذ العفو : أى خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة ولا تداقهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا وقيل : خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم وذلك قبل نزول آية الزكاة • والعرف : المعروف ، والجميل من الأفعال • وأعرض عن الجاهلين — ولا تكافىء السفهاء بمثل سفههم ولا تمارهم واحلم عنهم وغض على ما يسوؤك منهم » (٦١) ويرى العلامة القرطبى أن هذه الآية وان كانت من ثلاث كلمات الا أنها تضمنت قواعد الشريعة فى المأمورات والمنهيات • يقول القرطبى موضحا « هذه الآية من ثلاث كلمات تضمنت قواعد الشريعة فى المأثورات والمنهيات ، فقوله : خذ العفو : دخل فيه صلة القاطعين والعفو عن المذنبين والرفق بالمؤمنين وغير ذلك من أخلاق المطيعين •

ودخل فى قوله : وأمر بالعرف — صلة الأرحام وتقوى الله فى الحلال والحرام وغض الأبصار والاستعداد لدار القرار • وفى قوله: وأعرض عن الجاهلين — الحض على التعلق بالعلم والاعراض عن أهل الظلم والتنزه عن منازعة السفهاء ومساواة الجهلة الأغبياء » (٦٢) •

أما العلامة أبو حيان ، فيرى أن الأمر وان خوطب به الرسول الكريم موجه كذلك الى جميع أمته وأنه باق الى ما شاء الله ليعم النفع ويكثر الخير يقول أبو حيان « هذا خطاب لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويعم جميع أمته وهى أمر بجميع مكارم الأخلاق وأن ذلك حكم مستمر فى الناس وليس بمنسوخ » (٦٣) •

---

(٦١) الكشاف ج ٢ ص ١٣٨ •
(٦٢) القرطبى ج ٧ ص ٣٤٤ •
(٦٣) أبو حيان المجلد الرابع ص ٤٤٨ •

وفى قوله « خذ العفو » يلمح العلامة الألوسى مجازا فى لفظة « خذ » لأن معناها ارض واقبل وفى ايقاع الأخذ على العفو استعارة مكنية لأن العفو أمر معقول وليس محسوسا يطلب فيؤخذ . وهذا مؤداه التعجيل بالخير وايقاعه بسرعة دون تمهل حتى تعم الخيرات ، يقول الألوسى « والأخذ مجاز عن القبول والرضا ، أى ارض من الناس بما تيسر من أعمالهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة . وجوز أن يراد بالعفو ظاهره أى خذ العفو عن المذنبين والمراد اعف عنهم وفيه استعارة مكنية اذ شبه العفو بأمر محسوس يطلب فيؤخذ » (٦٤) .

(ب) أما آيتا الصفح المحثوث عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهما آيتا ٨٥ من الحجر ، ٨٩ من الزخرف والأولى تصف العفو المطلوب بالجمال والثانية تضم اليه السلام والمسالمة .

١ ــ وعن آية الحجر يرى الزمخشرى أنها وان وقعت مع الأعداء له صلى الله عليه وسلم فالقصد المخالفة وعدم اتصافه بشىء من أخلاقهم ، وأن ذلك ان كان مع أعدائه فلقصد ارجاعهم لعقاب الله أو لاعطائهم مهلة التفكير فى أمر رسالته فيسلموا يقول الزمخشرى « وان الساعة لآتية ــ وان الله ينتقم لك فيها من أعدائك .

فاصفح ــ فأعرض عنهم واحتمل ما تلقى منهم اعراضا جميلا بحلم واغضاء وقيل هو منسوخ بآية السيف . ويجوز أن يراد به المخالفة فلا يكون منسوخا » (٦٥) .

وأما آية الزخرف فهى تجمع مع الحث على العفو حثا على قول

---

(٦٤) الآلوسى ج ٩ ص ١٤٦ .

(٦٥) الكشاف ج ٢ ص ٣٩٧ ، وكذلك فى القرطبى ج ١٠ ص ٥٤ .

السلام والمسالمة ليليق ذلك بمقامه صلى الله عليه وسلم ثم ليتركهم لربهم فيعاقبهم وذلك بدلالة الوعيد المختومة الآية به «فسوف يعلمون»

يقول الزمخشرى « فاصفح عنهم — فأعرض عن دعوتهم يائسا عن ايمانهم ودعهم وتاركهم • وقل — لهم سلام • أى تسلم منكم ومتاركة • فسوف يعلمون — وعيد من الله لهم وتسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم » (٦٦) •

ويلحظ العلامة الشهاب الفرق بين السلام للتحية والسلام للمتاركة وأنه هنا للمتاركة فالقوم ليسوا أهل تحية لأنهم خاصموه وخالفوه وأمر بالاعراض عنهم يقول الشهاب معلقا على كلام البيضاوى « وقوله تسلم منكم ومتاركة — يعنى أن سلام خبر مبتدأ تقديره أمرى سلام وتسلم تفسير له فهو عطف بيان أو بدل منه وقوله متاركة بيان للمراد منه وأنه سلام متاركة لا سلام تحية » (٦٧) •

(ج) ويتبقى الآن آيتان ، احداهما تحثه على العفو والصفح معا والثانية تخبر عن عفوه وكلتاهما مع أعدائه امعانا فى شمولية رحمته وكرمه حتى مع من يخالفه • والآية الأولى هى ١٣ من المائدة والثانية هى ١٥ من المائدة •

١ — أما الآية التى تحثه على العفو والصفح معا حتى يأتى الأمر بالقتال أو يؤمنوا فهى تختم بتعليل مؤكد يزيد فى الحث على العفو والصفح ويحكيه على أنه احسان يحبه الله « فاعف عنهم واصفح — ان الله يحب المحسنين » •

يقول أبو السعود فى الآية « فاعف عنهم واصفح — أى ان تابوا

---

(٦٦) الكشاف جـ ٣ ص ٤٩٩، وكذلك فى أبى السعود جـ ٨ ص ٥٧ •
(٦٧) الشهاب على البيضاوى جـ ٧ ص ٤٥٥ •

وآمنوا أو عاهدوا والتزموا الجزية • وقيل مطلق نسخ بآية السيف• ان الله يحب المحسنين — تعليل للأمر وحث على الامتثال به وتنبيه على أن العفو على الاطلاق من باب الاحسان » (٦٨) •

ويربط صاحب الظلال بين اطلاق العفو ونسخه فيقول « ولقد كان توجيه الله لنبيه فى ذلك الحين الذى نزلت فيه هذه الآية : فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين • والعفو عن قبائحهم احسان والصفح عن خيانتهم احسان • ولكن جاء الوقت الذى لم يعد فيه للعفو والصفح مكان فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجليهم عن المدينة ثم أن يأمر باجلائهم عن الجزيرة كلها وقد كان » (٦٩) •

ولعل الله تعالى جمع لرسوله الأمرين فى طلب واحد لأن المقام يستدعى التأكيد على ترك المؤاخذة والاعراض عنهم فى آن واحد وذلك حتى تقوى شوكة المسلمين من جهة ويتضاعف صلف اليهود من جهة أخرى وهنا يكون المقام للسيف والقوة •

٢ — أما الآية التى تخبر عن عفوه صلى الله عليه وسلم فهى الآية ١٥ من المائدة وهى تخاطب اليهود والنصارى بقدره الرفيع وشرفه التليد حتى انه ليعفو عن كثير لا يؤاخذكم به أو لا يكشفه على الناس عنكم لعدم اقتضاء مصلحة دينيه •

وملاحظ أن الآية تستهل بخطابهم ثم يعقبه توكيد على مجيئه صلى الله عليه وسلم للبيان والافصاح عما أخفوه من كتبهم تبيانا لنبوته وصحة رسالته وتأييد الله له ثم تختم بالمعنى الثابت والسامى والمؤكد « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » وهو أسلوب خبرى يستحثهم

---

(٦٨) أبو السعود جـ ٣ ص ١٦ •
(٦٩) الظلال جـ ٦ ص ٨٦٠ •

على اتباعه بدلا من التيه فى الظلام والغموض يقول الزمخشرى « ياأهل الكتاب ــ خطاب لليهود والنصارى » (٧٠) ويقول الرازى : « وانما وحد الكتاب لأنه خرج مخرج الجنس » (٧١) ويضيف أبو السعود « ويعفو عن كثير ــ أى ولا يظهر كثيرا مما تخفونه اذا لم تدع اليه داعية دينية صيانة لكم عن زيادة الافتضاح • وفيه حث لهم على عدم الاخفاء ترغيبا وترهيبا » (٧٢) •

الجهة الثالثة والأخيرة من البحث ، وهى الجهة التى تحكى ما ينبغى أن يكون بين الناس من عفو وصفح وغفران • وآيات هذه الجهة أربع عشرة ، سبع منها ترغب فى العفو ، واثنتان منها ترغب فى العفو والصفح معا ، وأربع ترغب فى الغفران ، والأخيرة ترغب فى الثلاثة : عفو مع صفح مع غفران •

وبالنظر والتأمل فى جوانب تلك الجهة نجد أنها تحث الناس وترغبهم فى العفو بدلا من العقاب والانتقام ، حتى لا تتجدد العداوات ويتسع مداها وتتاح لشياطين الانس والجن مداخل كثيرة فيحيلون حياة الناس الى شغب ونصب وقتال وضغائن فلا يبقى وقت لعمل ولا تتسع المهلة لعبادة واخلاص •

وتحثهم على العفو مع الصفح تارة أخرى ، وهذه درجة أعلى ، لأنها تضيف على العفو صفحا ، فهى ترغبهم فى ترك الانتقام مع الاعراض والبعد عن تذكره والتفكير فى العودة اليه ، فهى تجمع خصلتين ممدوحتين وتطلب عملين متكاملين ، فكأنها تعالج الحاضر وتؤمن المستقبل ليقبل الناس على ما ينفعهم دون ما شاغل أو معوق للمسيرة التى تنطلق الى الخير ودون توقف •

---

(٧٠) الكشاف ج ١ ص ٦٠١ •
(٧١) الرازى ج ١١ ص ١٨٩ •
(٧٢) أبو السعود ج ٣ ص ١٨ •

وتحثهم تارة ، على الغفران دون ما اشارة الى صاحبيه أو أحدهما وذلك لأن الغفران أقصى وأعلى درجات المسامحة بين الناس • فاذا كان العفو تركا للعقاب في الحاضر ، والصفح بعد واعراض عنه ليتخلص المستقبل للعمل ، فان الغفران ستر ودفن وتغطية كاملة لما حدث وكأنه لم يقع فهو أكمل وأكبر • وذكره يستلزم التخلص السريع من الحالة والترقى الفورى من عفو الى صفح ثم الى غفران •

وتحثهم أخيرا ، الى الجمع بين الثلاثة ، وذلك صعب الا على النفوس الكبيرة • ومن عجب أن ذلك وارد مرة واحدة وفى ركن محدد من القرآن وهو ركن القرابة والقرابة القريبة والملاصقة وهى المشخصة في الزوج والولد وكأن الله تعالى يقول لنا : أنتم بين أمرين : اما أن تعيشوا فى عراك داخلى وخارجى ولا تعرفون له دفعا ولا منه فكاكا واما أن تجمعوا عقائدكم وتعزموا أموركم وتطلقوها صيحة واحدة ودفعة متتابعة من العفو والصفح والغفران ، وان أنتم فعلتم ذلك قوبل عفوكم عنهم بعفو عظيم من الله عنكم وكذا صفحكم وغفرانكم•

وعلى المقابل : وان لم تفعلوا ذلك ، عشتم فى ضنك وأسى منهم ولم تقابلوا من الله بشىء من العفو أو الصفح أو الغفران ، فقد عرض عليكم لكنكم أعرضتم •

والآن ، وبعد هذه المقدمة المجلية لجنبات هذه الجهة الأخيرة من هذا البحث ، ها نحن نقبل على الدرس البلاغى فى كل زاوية من زواياها الأربع :

(أ) الآيات السبع المرغبة في العفو هى :

١٧٨ من البقرة ، ٢١٩ من البقرة ، ٢٣٧ من البقرة ، ١٣٤ من آل عمران ، ١٤٩ من النساء ، ٩٥ من الأعراف ، ٤٠ من الشورى •

ونصوص هذه الآيات على التوالى هى :

١٧٨ من البقرة قوله تعالى « يا أيها الذين امنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » ، ٢١٩ من البقرة « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » ، ٢٣٧ من البقرة « وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم الا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم ان الله بما تعملون بصير » ، ١٣٤ من آل عمران « الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » ، ١٤٩ من النساء « ان تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفوا قديرا » ، ٩٥ من الأعراف «ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون » ، ٤٠ من الشورى « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين » .

وبالتأمل فى مجموع هذه الآيات نجد ما يلى :

١ ــ أنها شملت معظم الحالات التى يحتاج فيها الانسان الى عفو أخيه الانسان ، بدءا مما يسهل ويتيسر ولا يجهد من النفقة والاعطاء كما فى آية «٢١٩» من البقرة . الى عمومية العفو عمن يؤذى اتكالا وثقة على ادخار الأجر عند الله تعالى كما فى آية « ٤٠ » من الشورى . ثم انتقالا الى القدرة على الانتقام من المؤذى والظالم وهنا يحبب الله فى العفو ويرجىء الأذى والانتقام كما فى آية «١٣٤» من آل عمران التى تحول العفو الى لون من الاحسان الذى يحبه الله

ويحب فاعليه • ثم انتقالا الى عفو وترك لما يكشف العورة ويفضح المستور عند ابداء البينة من المظلوم كما فى الآية «١٤٩» من النساء • ثم انتقالا الى الحياة الزوجية ومن عجب أن الله يرغب فى العفو حتى عند الانفصال والتطليق فما بالنا مع الحياة الزوجية وذلك كما فى آية «٢٣٧» من البقرة • ثم تتدارج الآيات فى الترغيب حتى تحث وتحبب فى العفو عن قاتل النفس ، وهذا يدل على أن النفس البشرية قادرة — ان التزمت بشرع الله وعشقت دينه وخشعت لأوامره ونواهيه ورغائبه ورواهبه — على كثير من الخير ونشر الرحمة ، وعلى المقابل ؛ هى قادرة على اراقة البحور من الدماء ونشر الضغائن ان هى خالفت وعتت عن أمر ربها ورسله • وذلك العفو هو المقصود فى الآية «١٧٨» من البقرة• أما الآية السابعة وهى «٩٥» من الأعراف فالعفو وارد فيها بمعنى الزيادة وهى آتية لمعنى الابتلاء والفتنة للقوم اذ تركهم الله يزيدون فى النعم حتى أخذهم الله بغتة • وهى محذرة للناس من هذه الزاوية فقد يحدث لديهم عفو بمعنى الزيادة والكثرة والنماء وضبطه متصل بأوامر الله ونواهيه ان أطاعوا كان نعمة والا كان نقمة وأخذوا كبنى اسرائيل •

٢ — نجد كذلك ، فى الآيات السبع اتحاد الأسلوب الخبرى امعانا فى التدبر وحسن التلقى ، لا سيما ان ضم صيغة الأسلوب الشرطى المقنن والمتقن والذى يحكى الترابط القائم بين الشرط والجواب حثا على فعل الشرط ليقع جوابه وجزاؤه مكافأة سخية من الله تعالى • أو أن يضم أسلوبا حكيما يقع فيه الجواب على غير ما يترقب السامع فيقع أحسن موقع •

وها هو ذا التناول البلاغى والدرس النافع من خلال كل آية بحيث يكشف دور العفو فيها وكأنها سيقت — برمتها — لتحمل العفو وتضعه برفق فى عقول الناس وقلوبهم :

١ ــ الآية «٢١٩» من البقرة وهى تخرج الجواب الحكيم متضمنا عفوا كل سهولة ويسر ليشيع الخير والرغد بين الناس • فهى تحكى سؤال القوم لرسول الله صلى الله عليه وسلم هل ينفقون كل المال أو بعضه فخرج الجواب على غير ما يترقبون فوقع فى نفوسهم أحسن موقع والمعنى : انفقوا ما سهل وتيسر لكم وبذا تنالون الرضا والثواب لأن العبرة بطيب النفس ورضاها وبهجتها بما تقدم لا بكميته وكثرته• قال الزمخشرى فى معنى العفو فى الآية « العفو نقيض الجهد ، وهو أن ينفق ما لا يبلغ انفاقه منه الجهد واستفراغ الوسع » (٧٣) • ويضيف الرازى لفتة على كلام الزمخشرى فيقول « واذا كان العفو هو التيسير فالغالب أن ذلك انما يكون فيما يفضل عن حاجة الانسان فى نفسه وعياله ومن تلزمه مؤنتهم » (٧٤) •

ويجمع صاحب الظلال ما فى الآية من لقطة بلاغية وغرض مقصود فيقول « لقد سألوا ماذا ينفقون ؟ فكان الجواب عن النوع والجهة، فأما هنا فجاء الجواب عن المقدار والدرجة » • ويضيف : « والعفو: الفضل والزيادة فكل ما زاد على النفقة الشخصية ــ فى غير ترف ولا مخيلة ــ فهو محل للانفاق » (٧٥) • ولا شك أن خاصة الرجل ، بيته وولده ومن يعول • وكذا تقييده النفقة على الأهل بعدم الترف والمخيلة لأن كثيرين يضيعون المال فوق الحاجة الضرورية وكان أولى به أهل الفاقة والحاجة •

٢ ــ أما الآية «٤٠» من الشورى فهى تسوق فى أسلوب المشاكلة البلاغية بداعة وترافة تخرج بها العقاب فى شكل السيئة حتى تنفر منه

---

(٧٣) الكشاف ج ١ ص ٣٦٠ •
(٧٤) الرازى ج ٦ ص ٤٨ ــ وكذا فى أبى السعود ج ١ ص ٢١٩ •
(٧٥) الظلال ج ٢ ص ٢٣٢ •

وتحيل المعاقب الى طريق العفو والترك ليجد عدة عظيمة وجزاء وفيرا فيكون أجره على الله ثم تختم بالجملة المقررة والقاضية بأن صاحب الحق ان لم يعف قد يقع فى ظلم وهو لا يشعر • يقول الزمخشرى فى الآية « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح — بينه وبين خصمه بالعفو والاغضاء • فأجره على الله — عدة مبهمة لا يقاس أمرها فى العظم » • ويضيف : « وقوله انه لا يحب الظالمين — دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة والاعتداء خصوصا فى حال الحرد والتهاب الحمية ، فربما كان المجازى من الظالمين وهو لا يشعر »(٧٦) •

ويجلى العلامة الشهاب دقة التعبير بالظلم وكان محلها أن يقال ان الله يحب المحسنين أو المقسطين • وأن العفو هنا سد لذريعة الزيادة المحتملة عند العقاب وأخذ الحق ومقدم على هذا الحق لأن فيه أعظم منه وهو الأجر على الله تعالى • يقول الشهاب « وقول البيضاوى : انه لا يحب الظالمين ، أى المبتدئين بالسيئة والمتجاوزين فى الانتقام••الخ، اشارة الى دفع ما يتوهم من أنه كان الظاهر أن يقال ان الله يحب المحسنين أو المقسطين بأن هذا أنسب اذ المقصود منه الحث على العفو لأن المجازى اذا زاد وتجاوز حقه كان ظالما ، والمساواة من كل الوجوه متعذرة أو متعسرة ولما فيه من الايماء الى أن مشاتمة القبيح قبح وما هو على صورته لا يحب ولذا قال سيئة مثلها » (٧٧) • وبذا ينجلى الغرض ويتضح ، وهو الحث على العفو عن الظالمين والمتجاوزين حقوقهم حتى لا تتكرر المأساة وتعاد من جديد بظالم آخر •

٣ — أما الآية «١٣٤» من آل عمران فهى ترغب وتحث على العفو

---

(٧٦) الكشاف ج ٣ ص ٤٧٣ • وكذا فى أبى السعود ج٨ ص٣٥ •
(٧٧) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ج ٧ ص ٤٢٦ •

وتذكره مسبوقا بصفات ممدوحه وملتوا بصفة الاحسان والمدح فلا مفر من كونه ممدوحا فليحرص عليه العقلاء لتزداد وجهات مدحهم عند الله وعند الناس • وزاد من الترغيب كون الوصف بالعفو واردا معطوفا على صلة الموصول لكشف وتعداد ما يرغب فى فعله ثم تقييمه ورصد درجته بأن جعل العافى من المحسنين فى عجز الآية • ويحدد الزمخشرى العافى فى الآية فيقول : « والعافين عن الناس ــ اذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه » (٧٨) • وعن بلاغة المدح للعافين فى عجز الآية والمتبعث ــ عند الرازى ــ من نوعية اللام فى لفظة المحسنين اذ يقول « أما قوله تعالى : والله يحب المحسنين • فيجوز أن تكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون ، وأن تكون للعهد فيكون اشارة الى هؤلاء » (٧٩) • فالمدح وراءهم على أى من الوجهين •

أما العلامة ، صاحب الظلال فهو يربط بين الصفات الممدوحة فى الآية ويجعل العفو ضروريا اثر كظم الغيظ والا عادت المقدمة للخير ــ وهى كظم الغيظ ــ الى نتيجة أسوأ من الغضب الذى احتجز والغيظ الذى احتبس • يقول المرحوم سيد قطب « وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى ، وهى وحدها لا تكفى فقد يكظم الانسان غيظه ليحقد ويضغن، فيتحول الغيظ الغائر الى احنة غائرة ويتحول الغضب الظاهر الى حقد دفين • وان الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغين • لذلك يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم فى نفوس المتقين • انها العفو والسماحة والانطلاق •• ان الغيظ وقر على النفس حين تكظمه وشواظ يلفح القلب ودخان يغشى الضمير • فأما

---

(٧٨) الكشاف ج ١ ص ٤٦٤ •

(٧٩) الرازى ج ٩ ص ٨ • وكذا فى أبو السعود ج ٢ ص ٨٦ •

حين تصفح النفس ويعفو القلب فهو الانطلاق من ذلك الوقر والرفرفة في آفاق النور والبرد في القلب والسلام في الضمير » (٨٠) .

٤ ـ والآية «١٤٩» من النساء فهي تساق لغرض الحث على العفو مع القدرة على الانتقام . ومن بلاغة الآية أنها تعطف العفو عن السوء على ابداء الخير أو اخفائه عقب السماح بالجهر لمن اسيء اليه أن ينتصر لنفسه وذلك لبيان أن الأعلى منزلة والأسمى درجة هو العفو والترك وعدم المؤاخذة والانتقام حتى نتخلق بأخلاق الله وحتى نكون من المتعرضين لنفحات تلك الصفة من الله تعالى بدليل ختم الآية بالجملة المقررة « فان الله كان عفوا قديرا » .

فالآية خرجت في أسلوب خبري مصاغ على هيئة الشرط والجواب، أعلى درجة في الشرط هي من جنس الجواب « ان تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفوا قديرا » . امعانا في ابراز أن الآية كلها مساقة للترغيب في العفو عند القدرة على أخذ الحق .

يقول الزمخشري في الآية « وذكر ابداء الخير واخفاءه تشبيبا للعفو ، ثم عطفه عليهما اعتدادا به وتنبيها على منزلته ، وأن له مكانا في باب الخير وسيطا » ويضيف : « والدليل على أن العفو هو الغرض المقصود بذكر ابداء الخير واخفائه قوله « فان الله كان عفوا قديرا » . أي يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام ، فعليكم أن تقتدوا بسنة الله » (٨١) .

أما العلامة الرازي فيذكر مضمون ما سبق به الزمخشري مع اضافة في سبك الفحوى والمحتوى للجمل الشرطية في الآية وأنها تنطوى

---

(٨٠) الظلال ج ٤ ص ٤٧٥ .
(٨١) الكشاف ج ١ ص ٥٧٦ .

على معاقد الخيرات بين الناس ، يقول الرازى « اعلم أن معاقد الخيرات على كثرتها محصورة فى أمرين : صدق مع الحق وخلق مع الخلق والذي يتعلق بالخلق محصور فى قسمين : ايصال نفع اليهم ودفع ضرر عنهم • فقوله : ان تبدوا خيرا أو تخفوه — اشارة الى ايصال النفع اليهم • وقوله : أو تعفوا — اشارة الى دفع الضرر عنهم، فدخل فى هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر » (٨٢) ويربط العلامة أبو السعود بين صفتى العفو والقدرة لله تعالى وأن العفو فوق القدرة وأولى وأليق بذى الجلال أن يسبق عفوه قدرته كما سبق حلمه غضبه ، كما أن مجيء ذلك فى موضع الجواب عن الشرط لهو أدق وأوضح فى بيان قيمة العفو مع القدرة على الانتقام • يقول أبو السعود « فان الله كان عفوا قديرا ، فان ايراده فى معرض الجواب للشرط يدل على أن العمدة هو العفو مع القدرة أى كان مبالغا فى العفو مع كمال قدرته على المؤاخذه » (٨٣) • وعن ربط هذه الآية بما قبلها وهو قوله تعالى « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم وكان الله سميعا عليما » •

ومدى التدرج بالنفس البشرية لتتربى على الهدى الربانى الذى يجلب لها المنفعة ويدفع عنها المضرة ، يقول فى ذلك صاحب الظلال « وهكذا يرتفع المنهج التربوى بالنفس المؤمنة والجماعة المسلمة درجة أخرى • فى أول درجة يحدثهم عن كراهة الله — سبحانه — للجهر بالسوء ويرخص لمن وقع عليه الظلم أن ينتصف أو يطلب النصف بالجهر بالسوء فيمن ظلمه ومما وقع عليه من الظلم ، وفى الدرجة الثانية يرتفع بهم جميعا الى فعل الخير ويرتفع بالنفس التى ظلمت وهى تملك أن تنتصف من الظلم بالجهر — أن تعفو وتصفح — عن

---

(٨٢) الرازى ج ١١ ص ٩١ •

(٨٣) أبو السعود ج ٢ ص ٢٤٨ •

مقدرة فلا عفو بغير مقدرة • فترتفع على الرغبة فى الانتصاف الى الرغبة فى السماحة وهى أرفع وأصفى » (٨٤) •

٥ ــ والآية «٢٣٧» من البقرة ، تجعل العفو والمسامحة بين الزوجين وفى حالة الانفصال فما بالك بالعفو بينهما فى حال الارتباط والمعاشرة وتخرج ذلك فى أسلوب شرطى تجعل جوابه وجزاءه أن العافى يقترب من التقوى بدرجة كبيرة وتحث الآية على أن تتجه الأبصار الى ما سبق من ارتباط سرت فيه المحبة وتلاقى فيه الطرفان ، بدلا من أن تتجه النيات الى تأليف المضايقات وشحذ الهمة نحو كل ما يعكر ويضيق •

والكلام فى المطلقة قبل الدخول وقد فرض لها مهرها ، يقول الزمخشرى « الا أن يعفو ــ يريد المطلقات • أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ــ الولى ، يعنى الا أن تعفو المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر وتقول المرأة : ما رآنى ولا خدمته ولا استمتع بى فكيف آخذ منه شيئا ؟ وعفوه هو أن يسوق اليها المهر كاملا وهو مذهب أبى حنيفة » ويضيف قائلا « وتسمية الزياد على الحق عفوا فيها نظر الا أن يقال : كان الغالب عندهم أن يسوق اليها المهر عند التزوج فاذا طلقها استحق أن يطالبها بنصف ما ساق اليها فاذا ترك المطالبة فقد عفا عنها » (٨٥) •

وعن بلاغة الالتفات فى الآية والانتقال من الخطاب الى الغيبة ثم الانتقال الى الخطاب للرجال والنساء معا امعانا فى شيوع العفو والحث على ايقاعه من الرجل والمرأة ، يقول الرازى « وأجيب عن سبب

---

(٨٤) الظلال ج ٦ ص ٧٩٧ •

(٨٥) الكشاف ج ١ ص ٣٧٤ •

العدول عن الخطاب الى الغيبة التنبيه على المعنى الذى من أجله يرغب الزوج فى العفو • وقوله وأن تعفوا أقرب للتقوى ـ هذا خطاب للرجال والنساء جميعا الا أن الغلبة للذكور اذا اجتمعوا مع الاناث » (٨٦)•

ويلحظ أبو السعود ختم الآية بما يجدد الحث على العفو بين الزوجين فيقول « ان الله بما تعملون بصير » فلا يكاد يضيع ما عملتم من التفضل والاحسان (٨٧) •

ويلمح صاحب الظلال ملاحقة الله تعالى لجو العلاقة الزوجية فى اتصالها وانفصالها بهذا اللطف والرفق والتجمل فيقول « فالقرآن يظل يلاحق هذه القلوب كى تصفو وترف وتخلو من كل شائبة ، يلاحقها باستجاشة شعور التقوى ويلاحقها باستجاشة شعور السماحة والتفضل ويلاحقها باستجاشة شعور مراقبة الله ليسود التجمل والتفضل جو هذه العلاقة ناجحة كانت أم خائبة ولتبقى القلوب نقية خالصة صافية موصولة بالله فى كل حال » (٨٨) •

٦ ــ والآية السادسة تكاد تكون الآية الكبرى فى تصوير الرابطة الدينية ومدى انصياع المسلم المؤمن الى ربه مهما كلفه من تضحيات نفسية وشعورية فتبلغ به الدرجة الايمانية الى أن يعفو عن قاتل أبيه أو أخيه أو بنيه • ألا وهى آية «١٧٨» من البقرة،فهى بعد أن تفرض القصاص فى القتلى وتوضح طريقته العملية تعقبه بأسلوب شرطى يهجم بسرعة ويدخل وعلى المؤمن المتلقى فى عجلة « فمن عفى له من

---

(٨٦) الرازى جـ ٦ ص ١٤٣ •
(٨٧) أبو السعود جـ ١ ص ٢٣٥ •
(٨٨) الظلال جـ ٢ ص ٣٠٨ •

أخيه شيء فاتباع ... » حتى لا تدع لشاعر المتلقى أن تتمهل وتتروى وتتمسك بالقصاص فى صدر الآية وسوغ ذلك السريان وتسرب آثار العفو بناء الفعل للمجهول حتى يكون أول ما يقرع السمع هو لصالح السامع اذ الضمير للعافى الغائب وكذا لفظة « أخيه » ترقيقا وحثا واستثارة لأخوة العقيدة وتنكير شيء لما فيه من تصريفها حسب حال كل سامع فهى شائعة منكرة تتطابق مع حال كل • ثم يعقب ذلك الشرط خبر مسدر باسم الاشارة للبعيد « ذلك تخفيف من ربكم ورحمة » وذلك لما فيه من علو الهمة وبعد المنزلة للعافى ثم تمعن فى ترقيق النفوس واستجلاب المراحم بقوله « تخفيف من ربكم ورحمة » وتنكير التخفيف والرحمة لرفع شأنهما وعظمهما حتى تقبل النفوس على التعرض لهما •

فالآية ، بهذا استطاعت أن تلتقط العفو من براثن العصبية بل وتحبب فيه وترغب وبدلا من التمادى فى القتل تتبارى فى الود والتفضل • يقول الزمخشرى « وأخوه ، هو ولى المقتول • وقيل له أخوه ليعطف أحدهما على صاحبه بذكر ما هو ثابت بينهما من الجنسية والاسلام » • ويضيف : « وقيل شيء من العفو للاشعار بأنه اذا عفى له طرف من العفو وبعض منه بأن يعفى عن بعض الدم أو عفا عنه بعض الورثه ثم العفو وسقط القصاص ولم تجب الا الدية » • ويضيف : « ذلك — أى الحكم المذكور من العفو والدية • تخفيف من ربكم ورحمة ، لأن أهل التوراة كتب عليهم القصاص ألبتة وحرم العفو وأخذ الدية • وعلى أهل الانجيل العفو وحرم القصاص والدية ، وخيرت هذه الأمة بين الثلاث ، توسعة عليهم وتيسيرا » (٨٩) •

وعن بداعة التشريع والترقى من القصاص الى العفو دون فسر

---

(٨٩) الكشاف ج ١ ص ٣٣١ . والرازى ج ٥ ص ٥٣ — ٥٤ نحوه وكذا أبو السعود ج ١ ص ١٩٥ :

على الطبائع وكبت لروح الأخوة والعصبية يقول صاحب الظلال « ان الغضب للدم فطرة وطبيعة . فالاسلام يلبيها بالتقرير للقصاص فالعدل الجازم هو الذى يكسر شره النفوس ويفثأ حنق الصدور ويردع الجانى كذلك عن التمادى » ويضيف :

« ولكن الاسلام فى الوقت ذاته يحبب فى العفو ويفتح له الطريق ويرسم له الحدود فتكون الدعوة اليه بعد تقرير القصاص دعوة الى التسامى فى حدود التطوع لا فرضا يكبت فطرة الانسان ويحملها ما لا تطيق » (٩٠) .

٧ ــ أما الآية الأخيرة فقد وردت لفظة العفو فيها بمعنى الزيادة وأتينا بها هنا لما فيها من جانب تحذيرى وجانب ترغيبى ، التحذير من مماثلة بنى اسرائيل والترغيب فى طاعة الله وعدم التسويف ، فالزيادة المنبعثة من العفو فى الآية زيادة استدراج ومكر أعقبه هلاك ودمار .

يقول الزمخشرى فى الآية « ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ــ أى أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة ، الرخاء والصحة والسعة. حتى عفوا ــ أى كثروا ونموا فى انفسهم وأموالهم ، وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء ــ يعنى وأبطرتهم النعمة وأسروا فقالوا : هذه عادة الدهر يعاقب فى الناس بين الضراء والسراء وقد مس آباءنا نحو ذلك . فلم يبق بعد ابتلائهم بالسيئات والحسنات الا أن نأخذهم بالعذاب » (٩١) .

وتحذيرا من غفلة القوم والسير على طريقتهم يرى العلامة الألوسى فى قوله « فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون » مدى العنف والجسارة والفجأة القاتلة لا سيما اذا كان المأخوذ غافلا لا يشعر حالة وقوعها

---

(٩٠) الظلال ج ٢ ص ١٦٤ ــ ١٦٥ .

(٩١) الكشاف ج ٢ ص ٩٨ . والقرطبى كذلك ج ٧ ص ٢٥٢ .

فلا موقظ له الا هي نعـوذ بالله من شر ذلك ، يقـول الألوسى « وهم لا يشعرون ـ بشيء من ذلك ولا يخطـرو ببالهم شيئا من المكاره ، والجملة مؤكدة لمعنى البغته وهذا أشد أنواع الأخذ » (٩٢) .

(ب) أما الآيتان المرغبتان فى العفو والصفح معا فهما ١٠٩ من البقرة ، ٢٢ من النور ونص آية البقرة هو قول الله تعالى « ود كثـير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفـارا حسـدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصـفحوا حتى يأتى الله بأمره ان الله على كل شيء قدير » .

وآية النور هى قوله تعالى « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفـوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » .

وبالنظر فى نص الآيتين نجدهما التقيا فى صيغة الطلب داخـل الأسلوب الانشائى مع اختلاف فى توجيه هذا الطلب ، فقـد وجـه للمخاطبين فى آية البقرة ووجه للغائبين فى آية النور مع اتحـاد فى الجمع بين الأمرين العفو والصفح أى ترك المؤاخـذة مع الاعراض والتجنب لما من شأنه أن يثير النفس ويحرك الحمية . مع الحث على انتظار وترقب عقاب الله القادر على كل شيء ، فى آية البقرة ، والحض والترغيب على ترقب غفران الله الغفور الرحيم ردا على العفو والصفح بما هو أشمل وأكرم كما فى آية النور .

ويلاحظ أن الغاية فى آية البقرة ضربت وأتبعت بجملـة مقررة ومعللة لوقوعها وثابتة المراد وهى قوله تعالى « ان الله على كل شيء قدير » امعانا فى ايقاع وحدوث العفو والصفح من المسلمين وعـدم

---

(٩٢) الآلوسى ج ٩ ص ١٠ .

مشاكلتهم لأهل الجهل والكفر • وكذا ، فى آية النور أتبع الطلب بحرف التخصيص « ألا » وصياغة الفعلين « تحبون — يغفر » المرغبين فى ايقاع الحب والمغفرة المتجددة من الله تعالى والملازمة للعاف الصافح كلما اتجه الى ربه ثم الجملة المؤكدة والمطمئنة بايقاظ المخاطبين تجاه صفتى الغفران والرحمة الثابتتين لله تعالى « والله غفور رحيم » •

١ — وعن الارشاد لما هو أكرم فى آية البقرة يقول الزمخشرى « فاعفوا واصفحوا — فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح عما يكون منهم من الجهل والعداوة » (٩٣) •

ويوضح الرازى المقام المعروضة فيه الآية ومدى الاصابة بطلب العفو والصفح من المسلمين تجاه هؤلاء اليهود « فاعفوا واصفحوا — فهذا يدل على أن اليهود بعد ما أرادوا صرف المؤمنين عن الايمان احتالوا فى ذلك بالقاء الشبه على ما بيناه » ويضيف : « ولا يجوز أن يأمرهم تعالى بالعفو والصفح على وجه الرضا بما فعلوا لأن ذلك كفر فوجب حمله على أحد أمرين : الأول : ترك المقابلة والاعراض عن الجواب لأن ذلك أقرب الى تسكين الثائرة فى الوقت ، ولذلك لم يأمر بذلك على الدوام بل علقه بغاية فقال : حتى يأتى الله بأمره • والثانى : حسن الاستدعاء واستعمل فيه ما يلزم من النصح والاشفاق والتشدد فيه • أما قوله : ان الله على كل شىء قدير — فهو تحذير لهم بالوعيد سواء حمل على الأمر بالقتال أو غيره » (٩٤) • وفى أبى السعود ما يجمع بين خلاصتى الكشاف والفخر(٩٥) •

---

(٩٣) الكشاف ج ١ ص ٣٠٤ •

(٩٤) الرازى ج ٣ ص ٥٤٤ — ٥٤٥ •

(٩٥) أبو السعود ج ١ ص ١٤٦ • وكذا لمحة صاحب الظلال ج ١ ص ١٠٢ •

٢ — وعن آية النور يقول الزمخشرى فى معنى الآية « والمعنى : لا يحلفوا على أن لا يحستوا الى المستحقين للاحسان أو لا يقصروا فى أن يحسنوا اليهم وان كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها، فليعودوا عليهم بالعفو والصفح وليفعلوا بهم مثل ما يرجون أن يفعل بهم ربهم مع كثرة خطاياهم وذنوبهم » (٩٦) • ويذكر القرطبى ذلك مع زيادة توضيح فيقول « ألا تحبون أن يغفر الله لكم — تمثيل وحجة أى كما تحبون عفو الله عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم وينظر الى هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : من لا يرحم لا يرحم» (٩٧) ويضيف الألوسى على كل ما سبق ايضاحا فيقول : « وفيه ترغيب عظيم فى العفو ووعد كريم بمقابلته كأنه قيل : ألا تحبون أن يغفر الله لكم فهذا من موجباته » (٩٨) •

ومما تجدر الاشارة اليه أن أسباب النزول فى الآيتين لا يمنع من جريان مضمونهما الى يوم القيامة ليعم الخير وتتقشع الحزازات وتتفتح منافذ الاحسان سواء مع الأعادى وأولى منهم الأصحاب كما فى آية البقرة أو مع الأقارب المؤذين وأولى منهم المسالمون كما فى آية النور •

(ج) أما الآيات التى ترغب فى الغفران فهى أربع : ٣٧ من الشورى ، ٤٣ من الشورى ، ١٤ من الجاثية ، ٢٦٣ من البقرة • ونصوصها هى :

٣٧ من الشورى « والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون » ، ٤٣ من الشورى « ولمن صبر وغفر ان ذلك

---

(٩٦) الكشاف ج ٣ ص ٥٦ •
(٩٧) القرطبى ج ١٢ ص ٢٠٨ •
(٩٨) الآلوسى ج ١٨ ص ١٢٥ •

إن عزم الأمور » ، ١٤ من الجاثية « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون » ، ٢٦٣ من البقرة « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم » .

وبالنظر فى مجموع الآيات الأربع نلحظ أن الغفران بمعنى ستر الذنب وترك العقوبة عليه وفتح صفحة جديدة من العمل الطيب وتبادل النفع ونبذ الأذى وآية الشورى ٣٧ يذكر الغفر كجواب حتمى ورد معتاد من هؤلاء الناس ، على من أغضبوهم وأثاروا حفيظتهم ، وزادهم مدحا ، وترغيبا فى التأسى بهم ورود حالهم معطوفا على صلة الموصول بصفات ممدوحة ومتعالية القدر وهى تجنب الكبائر والفواحش وأكسبها قوة ووكادة ، مجيئها — كذلك — فى أسلوب القصر الذى طريقه التقديم « هم يغفرون » أى هم لا غيرهم من الناس لأن الغالب عند الاغضاب هو اثارة وثورة من الغاضب ونشر واذاعة مساوىء المغضوب منه .

ثم نلى ذلك آية ٤٣ من الشورى ذاتها وهى تحكى فى أسلوب خبرى واعد بالخير ومؤكد على شرف الصابر الغافر وعلو قدمه عند الله بدلالة ايقاعه شرطا لوصف مؤكد من علو الهمة ورفعة الشأن والالتزام بما يجب أخذه مرضاة لله وامتثالا لأوامره وواجباته . والتأكيد بان ولام البعد فى اسم الاشارة كل ذلك يدعم قدره وعلوه ومجىء المصدر « عزم » بمعنى اسم المفعول امعانا فى افعامه بدلائل الهمة ورزانة الفعل . أما سبقه بالصبر فهو سبق تمهيد ومراجعة ومداولة حتى تحسم بالستر والمحو .

أما آية الجاثية فهى تأتى بالغفر محدثا عليه المؤمنون وفى أسلوب انشائى وارد مورد الاستئناف البلاغى أو شبه كمال الاتصال وهذا يعنى أهميته ومدى عناية الله به حتى يترقبه المؤمنون ليفزلوه من

أنفسهم منزلة حميدة،ومجيئه بصيغة المضارع توحى بأن يمتثلوا ذلك على الدوام ويتجدد مقاماته ودواعيه • ومجىء المغفور لهم موصوفين بهذا الوصف يعنى أنكم — أيها المؤمنون — اغفروا لهؤلاء وترقبوا الأجر فى الآخرة ولا تكونوا كالذين لا يرجون أيام الله • وآية البقرة تعطف المغفرة على عمل جيد ومعروف بالخير عند الناس ثم تفضله وتجعله خيرا من عطاء متبوع بالمن والأذى •

ويقوى من تلك الدلالة اللفظية موقع « خير » كخبر عن مبتدأ فيه الخير والنفع مما يعنى أن المغفرة والستر وعدم كشف مساوىء الآخرين من أجل ما يحبذ عليه الشرع ويحفز الهمم على اتباعه •

فالغفران هنا دار مع المؤمنين دورات شملت حال غضبهم ، وشملت ما يليه من تفكير وصبر ، وشملت توجيهه لغيرهم ممن لا يساويهم دينا ولا خلقا ، وشملت توجيههم لفعله عند الاعطاء أو عدمه •

وهذه المناحى قلما تغيب عن معظم الناس ، لذا كان توجيههم بها من النفع العظيم •

وعن الآية ٣٧ من الشورى يقول الكشاف « واذا ما غضبوا هم يغفرون — أى هم الأخصاء بالغفران فى حال الغضب لا يغول الغضب أحلامهم كما يغول حلوم الناس والمجىء بـ « هم » وايقاعه مبتدأ واسناد يغفرون اليه لهذه الفائدة ومثله : هم ينتصرون »(٩٩) ونفس الملمح البلاغى فى الآية أشار اليه أبو السعود(١٠٠) •

والآية ٤٣ من الشورى يوضح المعنى الزمخشرى فيقول :

(٩٩ ، ١٠٠) الكشاف جـ ٣ ص ٤٧٢ • وأبو السعود جـ ٨ ص ٣٣ •

« ولمن صبر — على الظلم والأذى • وغفر — ولم ينتصر وفوض أمره الى الله • ان ذلك — منه ، لمن عزم الأمور »(١٠١) •

وآية الجاثية يقول فيها الزمخشرى : « قل للذين آمنوا يغفروا — حذف المقول لأن الجواب دال عليه • والمعنى قل لهم اغفروا يغفروا• وقوله : لا يرجون أيام الله — لا يتوقعون وقائع الله بأعدائه • وقيل: لا يأملون الأوقات التى وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها• وقوله : لتجزى — تعليل للأمر بالمغفرة أى انما أمروا بأن يغفروا لما أراده الله من توفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة »(١٠٢) • وفى ايراد لفظة « قوم » منكرة وذكر مسبب جزائهم ، حث على تركهم لهذا اليوم لله رب العالمين وعدم مجاراتهم فى سفههم وجهلهم فهم أحقر وأخس من أن يواجههم أهل الحق وأنصاره •

يقول أبو السعود « وقد جوز أن يراد بالقوم الكفرة ، وبما كانوا يكسبون سيئاتهم التى من جملتها ما حكى من الكلمة الخبيثة والتنكير للتحقير »(١٠٣) •

هذا على رأى من قال ان الجزاء خاص بالسيئة وأن القوم هنا هم الكافرون •

لكن لا مانع من تعميم الجزاء للحسن والقبح وتعميم لفظة « قوم » للمؤمن والكافر ثم يعود على كل صنف ما يناسبه ويكون التنكير للتعميم الشامل لكل بما يليق به فتكون للتحقير ان أريد بالقوم الكافرون وللتعظيم ان أريد بالقوم المؤمنون والجزاء الحسن للكسب الحسن ، والجزاء المهين الأثيم وبذا تكون الآية محذرة ومرغبة فى آن

---

(١٠١) الكشاف ج ٣ ص ٤٧٣ وكذا فى أبى السعود ج٨ ص٣٥ •
(١٠٢) الكشاف ج ٣ ص ٥١٠ — ٥١١ •
(١٠٣) أبو السعود ج ٨ ص ٧٠ •

واحد، يقول فى ذلك البيضاوى «ليجزى قوما بما كانوا يكسبون ـ علة للأمر والقوم هم المؤمنون أو الكافرون أو كلاهما فيكون التنكير للتعظيم أو التحقير أو الشيوع، والكسب المغفرة أو الاساءة أو ما يعمهما» ويعلق الشهاب قائلا « وقوله فيكون التنكير .. الخ لف ونشر ، فالتعظيم على ارادة المؤمنين وما بعده لما بعده »(١٠٤) .

وآية البقرة يقول الزمخشرى فى معناها : « قول معروف ـ رد جميل ، ومغفرة ـ عفو عن السائل اذا وجد منه ما يثقل على المسئول، أو : ونيل مغفرة من الله بسبب الرد الجميل أو عفو من جهة السائل لأنه اذا رده ردا جميلا عذره »(١٠٥) .

ويعلل العلامة الرازى لأفضلية المغفرة وقول المعروف عن الصدقة المتبوعة بالأذى فيقول « وسبب هذا الترجيح أنه اذا أعطى ثم أتبع الاعطاء بالايذاء فهناك جمع بين الانفاع والاضرار وربما لم يف ثواب الانفاع بعقاب الاضرار . وأما القول المعروف ففيه انفاع من حيث انه يتضمن ايصال السرور الى قلب المسلم ولم يقترن به الاضرار فكان هذا خيرا من الأول »(١٠٦) .

وعن معنى المغفرة وربط الآية بعجزها بلاغة وغرضا يقول أبو السعود : « قول معروف ـ أى كلام جميل تقبله القلوب ولاتنكره يرد به السائل من غير اعطاء شىء . ومغفرة ـ أى ستر لما وقع من السائل من الالحاف فى المسألة وغيره مما يثقل على المسئول وصفح عنه.

والله غنى حليم ـ لا يحوج الفقراء الى تحمل مؤنة المن والأذى

---

(١٠٤) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ج ٨ ص ١٨ .
(١٠٥) الكشاف ج ١ ص ٣٩٤ .
(١٠٦) الرازى ج ٧ ص ٤٩ .

ويرزقهم من جهة أخرى . حليم — لا يعاجل أصحاب المن والأذى بالعقوبة . والجملة تذييل لما قبلهما مشتمل على الوعد والوعيد مقرر لاعتبار الخيرية بالنسبة الى السائل قطعا »(١٠٧) .

(د) وأما ختام المسك ، فى هذا البحث فهى الآية ١٤ من التغابن وهى قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم » والآية مفعمة بالدلالات البليغة ، فهى الآية الوحيدة التى تحث الناس على أن يعفوا ويصفحوا ويغفروا فى آن واحد ، وهى الآية الوحيدة — كذلك — فى تخصيص ذلك بألصق الناس وأحبهم وأقربهم الى العافين والصافحين والغافرين ، وهم الأزواج والأولاد وكأنها تقول ان العفو المجرد أو الصفح المجرد أو الغفران المجرد طولبتم به مع غير هؤلاء وكذا ضم العفو الى واحد من الاثنين الآخرين ، لكن هنا الأمر أشد وأضيق ولا يتحمل تجزئة فاما الثلاثة متتابعة ومتدفقة واما عداوة وخصام وشقاق . ولما كان الأزواج والأولاد هما مبعث الأنس والسكن والمتعة والزينة فى الحياة الدنيا أراد الله بهذا الحث المتتابع أن يعيد البهجة والهدأة وأن يتغلب المؤمنون على شحناءاتهم وأن يستجيبوا لربهم حتى لا تتراكم مضايقاتهم — تبعا للمعاشرة والملاصقة وعدم التخلص من الأزواج والأولاد — فتنتج وبغتة دمارا وعذابا مع أن الأصل والأساس أن تنتج العلاقة السوية عمارا ونعيما وأنسا ولكنها هى فتن الحياة وبلاءاتها التى توصل — بالتأمل — الى الالتزام الحثيث بما أمر ونهى ربنا والا شقى الناس وتعسوا .

ويسبق الحث فى الآية بنداء رقيق ونصح واضح وارشاد بالحذر والحيطة ثم يعقب الحث فى الآية بوعد صادق وغفران رحيم ثابت من

---

(١٠٧) أبو السعود جـ ٦ ص ٢٥٨ .

ذى الاكرام والجلال وبذا لا يبقى أمام المؤمنين الا أن يعفوا ويصفحوا ويغفروا فلا يبقى فى الفكر عقاب ولا صورته ولا فى الصدر ضجر ولا أثرته ولا فى العقل والقلب ضغينة ولا أثر لشىء • وبذا يقبلون على الحياة بنفس راضية ملتزمة بشرع الله حتى تنتهى تلك الحياة ويقبلون على ربهم ليجدوا جزاء ما قدموا وثواب ما تحملوا ومتعة ما تجشموا ؛ يحكى مضمون الآية العلامة الزمخشرى بشىء من الجلاء والتؤدة فيقول :

« ان من الأزواج أزواجا يعادين بعولتهن ويخاصمنهم ويجلبن عليهم ، ومن الأولاد أولادا يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى • فاحذروهم — الضمير للعدو أو للأزواج والأولاد جميعا، أى لما علمتم أن هؤلاء لا يخلون من عدو فكونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم » • ويضيف وان تعفوا — عنهم اذا اطلعتم منهم على عداوة ولم تقابلوهم بمثلها فان الله يغفر لكم ذنوبكم ويكفر عنكم »(١٠٨) ويجمل العلامة أبو السعود مضمون العفو والصفح والغفران بشىء من الدقة والاحكام المجليين للمراد فيقول : « وان تعفوا — عن ذنوبهم القابلة للعفو بأن تكون متعلقة بأمور الدنيا، أو بأمور الدين لكن مقارنة للتوبة • وتصفحوا — بترك التثريب والتعيير • وتغفروا — باخفائها وتمهيد عذرها »(١٠٩) •

وفى ذلك الهدى الالهى والفهم البلاغى لفحوى تلك الآية الشريفة ودقة سبكها ورفيع رصفها وتتابع النداء والوصف بالأيمان وتأكيد المسألة التى جلبت من أجلها الآية كلها — وهى مسألة الخصام

---

(١٠٨) الكشاف جـ ٤ ص ١١٥ •

(١٠٩) أبو السعود جـ ٨ ص ٢٥٨ •

الأسرى أو العداوة العائلية أو الشقاق المنزلى — ثم ايلاء ذلك بتحذير صريح يشفع بعلاج ناجع وباتر للشقاق وقاض على الشحناء وهو التخلق بأخلاق الله تعالى حتى يكون المرء أهلا لأن يعفى عنه ويصفح ويغفر له ويكرم فيكتسب بذلك وينعم ، بهدوء مجلوب لبيته ورغرفة للهدأة والسكون فيه ، ثم بجزاء سخى عند ملاقاته ربه • فيكون قد جمع بين الجميلين وتمتع بكلا الخيرين فى كلا الوقتين • والا خسرهما معا وكان ممن سحب نفسه من حظيرة الايمان وغاب عن نداء الايمان ولم يستفد من تحذير الله ولم يستجب لأمر الله ولم يرض أن يكون ممن يعفي عنهم ويصفح ويغفر لهم فى وقت ما أحوج المرء فيه الى شىء من ذلك •

وبعد •••

فقد كان البحث معنيا بدوران تلك الكلمات الثلاث « العفو والصفح والغفران » فى القرآن الكريم وكان مهتما بكل ما يجرى فى كلام المفسرين حول تلك المواد الثلاث ودورها فى الآية من جهة ، ودور آيتها فى السياق من جهة أخرى •

ثم كان البحث جادا فى عرض كل مجموعة من الآيات عرضا متآلفا ومتآزرا تحت مسألة واحدة وعنوان واحد ، وكان الجد كل الجد ، فى التقاط كل ما يوسع دائرة المعنى ويجلى دور اللفظة ، ويترك أثرا نابضا فى مقام كل آية من جهة ، وفى ارتباطها بمجموعتها من جهة أخرى • وبذا تعيش اللفظة ويثبت دورها فى حياة الناس ويرتسم معناها فى نفوسهم ومشاعرهم •

وبهذه الروح المقبلة على نصوص السادة المفسرين ، وبهذا العزم على العمل المحدد والمطلوب ، يجد الباحث نفسه متحفزا لكل ما ينفع بحثه ويضيف اليه لفظة ، ويجلى له قصده •

وهنا ، يتعامل مع النصوص — بعد انتقاء المفيد واختيار المطلوب وترك البعيد والضعيف — تعاملا يحكى فهمه لمرادها ، فيجلى ما غمض فيها ، ويقوم لها بما يكشف عن قيمتها ويذيلها بما يبين اصابتها للهدف والغرض فى الكلام ، كل ذلك فى أسلوب علمى وبلاغى مضبوط ، يعيد للقارىء دور كل لون بلاغى معروض ويوضح أهميته فى مقامه .

ومن هنا نجد أن البحث تجنب كل ما يضيف غرضه ويهز قصده ، من أقوال المفسرين ، وحرص على كل ما يجلى أمره ويفصح عن شأنه وقدره وبذا عد البحث وهىء لكل ما يخدمه من قول دون أن يقحم بين رأى ضعيف وآخر قـوى .

والغاية — التى يعلمها الله تعالى — من هذا البحث وأمثاله ، فى القرآن الكريم ، هى عرض ما يهم الناس فى ثوب رائق سهل ، وتقديمه للباحثين فى عرض علمى وضـوابط ثابتة . وعلى الله قصد السـبيل ، وهو الموفق ...

أ.د/ يحيى محمد يحيى